الفصل الثاني

الأغراض الحديثة

١ – شعر الجهاد

٢ – وصف الطبيعة

٣ – وصف مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية

obeikandl.com

obeikandl.com

شعر الجهاد

خاض سيف الدولة حرباً ضروساً ضد الدولة البيزنطيّة استمر لظاها أكثر من عشرين عاماً ، ولقي الروم فيما يزيد على أربعين معركة كُتب له النصر في معظمها وذاد عن ذمار الإسلام وحرمته ونافح عن بلاد العرب ودنياهم . ووقف سدّاً منيعاً أمام الخطر البيزنطي الداهم ففلّ جيوشهم وألحق الهزيمة بصفوفهم وجاس خلال ديارهم ووصل إلى بُعدِ سبعة أميال من عاصمتهم .

كان سيف الدولة رجل عزم وقوة ، وصاحب مبدأ وعقيدة ، وشعَر شعوراً قوياً أن الجهاد في سبيل الله فرضٌ من الفروض المقدّسة وأن دفع طغيان الأجنبي واجب سام فكرس جهده ووقف حياته وعمل بكل طاقته على إعداد الجيوش وتهيئتها لمجابهة الخطر الداهم من الروم ، الذين شعروا أن الفرصة سانحة وأن الوقت مناسب لتحقيق آمالهم وشفاء أحقاد نفوسهم القديمة منذ الفتح الإسلامي وقد شجعهم ضعف الدولة العباسية في القرن الرابع وتفككها إلى إمارات صغيرة متطاحنة على أن يسعَوْا لتحقيق أطماعهم المبيتة ولكن أمير حلب الفتيّ الأبي نهَدَ لمقارعتهم طوال حكمه ووقف عقبة كئوداً في طريق خططهم المرسومة التي كانت تهدف — كما أشرنا سابقاً — للاستيلاء على بيت المقدس وديار الإسلام .

ولقد أشرع الروم على سيف الدولة حرباً صليبية قبل أن تظهر الحروب

الصليبية المعروفة وكانوا يسمّون سيف الدولة (الكافر الحمداني) كما كان رجال سياستهم يعدّونه « المحارب الوحيد الأعظم السامي الذي أعلن الحرب المقدسة على النصرانيّة »[1] ويقول شلبرجة – أحد مؤرخي الغرب عن حرب سيف الدولة مع الروم : « إن المتصفح لمقتطفات التاريخ البيزنطي في منتصف القرن العاشر ولأكثر من عشرين عاماً يجد اسماً وحيداً يطفو على كل صفحة من صفحات ذلك التاريخ كإنسان شجاع لا يملّ ولا يكلّ ولا يتعب ، وذلك هو أمير حلب سيف الدولة بن حمدان الذي كان عدواً لدوداً للامبراطورية البيزنطية[2] .

وكان من الطبيعيّ أن تترك هذه الحروب الطاحنة والمعارك المتأججة أثرها في شعر الندوة السيفية ، فصوّر الشعراء ولا سيما المتنبي وأبي فراس اللذين خاضا غِمار المعارك في هذه الحروب خير تصوير ، ووصفوا المواقع والتحام الجيوش واجتياز السهول وتخريب المدن وأسر السبايا وغير هذا وذاك مما يرافق الحرب من أهوال وويلات . وأخرجوا لنا شعراً جديداً رائعاً هو شهر الجهاد .

ومن دراستنا لهذا الشعر واستجلاء ملامحه نرى أن الشعراء قد عدّوا هذه الحروب صراعاً دينياً فصوروها حرباً بين الإسلام والكفر وانتصاراً لدين الله القويم على أعداء الإسلام من المشركين . والإلماعات إلى ذلك في شعرهم كثيرة فالمتنبي يقول حين يمدح سيف الدولة – في إحدى معاركه – بأنه لا يقاتل الروم قتال فرد لقرينه وإنما يقاتلهم قتال مبدأ وعقيدة ، يقاتل مدافعاً عن دين الإسلام ومنتصراً له على الشرك[3] :

---

(١) شعر الحرب في ادب العرب : زكي المحاسني (٢٥٩) .
(٢) سيف الدولة الحمداني : د. الشكعة (١١٩) .
(٣) ديوان المتنبي (٣ / ٣٩١) .

ولَسْتَ مَليكاً هـازِماً لنَظيرِهِ ولكنّكَ التوحيدُ للشركِ هازِمُ

والسريّ الرفاء يقول في وصفه لإحدى هذه المعارك : ان المسلمين حين انتصروا على الروم كان انتصارهم قضاء على الكفار [1] :

أفْنَتْ ظُباكَ الرومُ حتى إنّها لمْ تُبقِ منها ظبْيَةً أو رِيما
ومحَوْتَ آثارَ الصليبِ فلمْ تدَعْ للعينِ منها معلماً معلوما

ويتحدث الشاعر في قصيدة أخرى عن انتصار الأمير الحمداني على الروم فيُعدّه عزةً للإسلام وعظمة فيقول :

فتْحٌ أعزَّ بهِ الإسلام صاحبُهُ وردّ ثاقبَ نورِ المُلكِ ثاقبهُ

وفي الموضوع نفسه قال [2] :

رمَى الصَّليبَ وأبناءَ الصَّليبِ فلمْ تُغمَدْ صوارمُهُ إلاّ وهم رِمَمُ
بالبيضِ تُنكرها الأغمادُ مُغْمَدَةً والجُرْدُ تعرفُها الغيطانُ والأكمُ

ولقد كثرت معارك سيف الدولة مع الروم وكثيراً ما كان ينتصر وأحياناً كان ينهزم والشعر في كل هذه الحالات يصف لنا فرحة النصر أو لوعة الهزيمة ، واعتمد الشعراء في وصفهم لهذه الحروب على إبراز الخطط وتنسيق الجيوش ووصف القادة ، بل إنهم أيضاً وصفوا مشاعر وأحاسيس المتحاربين [3] .

وكان المتنبي أبرع شعراء الندوة السيفية في وصف حروب الأمير مع الروم إذ سجل في سيفياته كل حوادث هذه الحروب فوصف ظَفَر الأمير

---

(١) ديوان السري (٢٥٠) .
(٢) المصدر نفسه (٢٤٦) .
(٣) مع المتنبي : د. طه حسين (٢٣٠) .

الصاعق وانخذال الروم الساحق وفرار مَلِكهم وقوّادهم وتشتيت جيوشهم واندحارها .

ولقد كان هذا الفن أصيلاً لديه ينبع من نفسه إذ كان فارساً مقداماً وشاعراً بارعاً رافق سيف الدولة في أكثر حروبه ، وشهدها معه وحارب فيها إلى جانبه . ولقد أكثر من وصف حروب الأمير الحمداني وأجاد حتى قال ابن الأثير « إذا خاض المتنبي في معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظنّ الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا » . وإن قصائد المتنبي هذه فوق ما حوته من قيمة أدبية وسحر بيان وتحليق في فن المعاني والأسلوب وسمو في الصنعة فإنها تجمع في أبياتها قيمة تاريخية وجغرافية غالية القدر وتُعدّ وثائق في غاية الخطورة كتابة التاريخ السياسي والتحقيق الأدبي عن عصر سيف الدولة [1] .

وكانت أول معركة شهدها المتنبي من معارك سيف الدولة مع الروم في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ففيها تقدم الأمير الحمداني في الأرض البيزنطية فاتح مكتسحاً حتى وصل إلى صارخة [2] وهي غير بعيدة عن القسطنطينية وظفر سيف الدولة وغنم غنيمة كبرى ولكنه عندما أراد الخروج من بلاد الروم أخذوا عليه الدّرب فقُتل خلق كثير من جيش سيف الدولة وكان سيف الدولة نفسه يهلك فسميت تلك الغزاة غزاة المصيبة [3] فأنشد المتنبي قصيدته بالحديث عن الناس الذين لا يمكن الحكم عليهم إلاّ بعد التجربة والذين يجبنون عند القتال ويشجعون عند الحديث [4] :

غَيري بأكثرِ هذا النّاس ينخدعُ إن قاتَلوا جبنوا أو حدّثوا شجعوا

---

(١) شعر الحروب في أدب العرب : الدكتور زكي المحاسني (٢٧٤) .
(٢) صارخة : في أرض البقلاء بناحية خرشنة .
(٣) تجارب الامم (٢ / ١٢٥) .
(٤) ديوان المتنبي (٢ / ٢٣٠) .

أهلِ الحفيظةِ إلاّ أنْ تُجرِّبَهُمْ ... وفي التجاربِ بعْدَ الغيّ ما يَزَعُ (١)
وما الحياةُ ونفسي بعْدَ ما علمتْ ... أنَّ الحياةَ كما لا تشتهي طبَعُ (٢)
ليسَ الجمالُ لوجهٍ صحّ مارنُهُ ... أنفُ العزيز بقطعِ العزّ يجتدعُ (٣)

ونلاحظ رنة الأسى والألم في حديث المتنبي وتعريضه بالجبناء الذين يجْبُنون وقت الواقعة ويُظهرون الحمية والإقدام وهم بعيدون عنها ولعله بمخاطبة نفسه أراد التعريض بأصحاب سيف الدولة .

ثم يمتدح الشاعر بطولة الأمير وشجاعته ويصف ما كان عليه من الجدّ والعزيمةفي لقاء العدو ونزوله على خَرْشَنَة وشقاء الروم وبِيَعهم وصُلبانهم(٤) :

بالجيشِ تمتَنِعُ السّاداتُ كلّهمُ ... والجيشُ بابنِ أبي الهيجاءِ يمتنعُ
قادَ المقانب أقصى شرْبَها نهَلٌ ... على الشّكيمِ وأدنى سيرها سَرَعُ (٥)
لا يعتفي بلَدٌ مسْراهُ عَنْ بلَدٍ ... كالموتِ ليس لهُ ريٌّ ولا شبَعُ (٦)
حتى أقامَ على أرباضِ خَرْشَنَةٍ ... تَشْقى به الرومُ والصّلبانُ والبِيَعُ

وينساب الشاعر واصفاً ما حاق بالروم من تدمير وقتل وسبي فيقول :

للسَبْيِ ما نكحوا والقَتْلِ ما وَلَدوا ... والنّهبِ ما جمعوا والنّارِ ما زرعوا
مخلىً له المرج منصوباً بصارخَةٍ ... لهُ المنابر مشهوداً بها الجُمَعُ (٧)

---

(١) الحفيظة : الحمية والانفة . ما يزع : يكف ويردع .
(٢) الطبع : الدنس .
(٣) المارن : ما لان من الانف .
(٤) ديوان المتنبي (٢ / ٣٣٣) .
(٥) المقانب : جمع مقنب ، جماعة الخيل زهاء الثلاثمائة . النهل : الشرب الاول . الشكيم : جمع شكيمة ، الحديدة المعترضة في فم الفرس من اللجام .
(٦) لا يعتفي : اي لا يعتاق .
(٧) المرج : موضع ببلاد الروم . صارخة : مدينة من مدائنهم .

يطَمّحُ الطّيْرَ فيهمْ طولُ أكلانهمِ حتى تكادَ على أحيائِهم تَقَعِ

ويستطردُ المتنبي فيصف الخيل وسرعة جريها ومواصلتها السير والغبار الذي يملأ مناخرها لركضها السريع وهي تختلس الماء اختلاساً لتواصل عدوها . وكأن الفُرسان الذين يمتطونها يشقّون لها طريقها بين صفوف الروم فتدوسهم بحوافرها . وإذا أظلمت ساحة الحرب بالغبار هدَتْ عيونَ الخيل فيها نارُ الأسِنّة :

يذْري اللّقانُ غُباراً في مناخِرِها وفي حناجرها من آلسِ جُرَعُ (١)
كأنها تَتَلقّاهُمْ لِتَسْلُكَنَّهُمْ فالطّعْنُ يفتَحُ في الأجوافِ ما تسعُ
تَهدي نواظرها والحربُ مُظْلِمَةٌ منَ الأسِنّةِ نارٌ والقَنا شَمَعُ
دونَ السّهامِ ودونَ القرّ طافحةً على نفوسهمِ المقوَرَّةُ المُزَعُ (٢)

ويمضي المتنبي واصفاً هزيمة الروم وصفاً رائعاً حقاً فيصف هزيمة قائد الجيش الرومي وقتل وأسر جنده وفرار من نجا وفي قلبه فزع يقتله ولو بعد حين :

إذا دعا العلْجُ عِلجاً حال بينهما أظمى تفارقُ منهُ أختها الضَّلَعُ (٣)
أجَلُّ منْ ولَدِ الفقّاسِ منكتِفٌ إذ فاتهنّ وأمضى منهُ منصرعُ (٤)
وما نجا منْ شِفارِ البيضِ مُنْفَلِتٌ نجا ومنهنَّ في أحشائه فزَعُ (٥)

---

(١) اللقان : موضع في بلاد الروم : آلس : نهر في بلاد الروم .
(٢) يقال لوهج الصيف وغبراته : سهام ـ بفتح السين ـ والسهام : حر السموم .
(٣) العلج : الرجل الغليظ من كفار العجم . اظمى : يعني رمحا اسمر .
(٤) الفقاس : جد الدمستق . وقال ابن جني : هو الدمستق كأنه لقبه .
(٥) شفار : جمع شفرة : حد السيف .

يُباشرُ الأمنَ دهْراً وهو مختبَلٌ ويشربُ الخمر حَوْلاً وهو ممتقعُ

وينتقل المتنبي إلى وصف البطارقة المقيّدين بالأغلال وأنّ أرواحهم في ضمان القَيد للسيوف.وأن القيد يعوقهم عن الخطو إنأرادوا السير ويمنعهم النوم عند الاضطجاع :

كمْ من حشاشَةِ بطريقٍ تَضَمّنها للباتِرات أمينٌ ما لهُ وَرَعُ
يقاتِلُ الخطْوَ منهُ حينَ يطْلُبُهُ ويطرُدُ النّوم عنه حينَ يضْطَجعُ
تغدُو المنايا فلا تنفكّ واقِفَةً حتى يقولَ لها عُودي فتندفعُ

ويتحدث الشاعر عن هزيمة سيف الدولة وهو أمر خطير ودقيق ولكن الشاعر بجيد التعليل ويحسن التفسير فهو لم يصرّح كيف تحوّل النصر إلى هزيمة ولكنه قال أن سبب الهزيمة مَنْ لحق بسيف الدولة من الضعفاء والجبناء وأن الأسرى الذين وقعوا في يد الروم جازاهم الله على تقاعسهم وخذلانهم للأمير . وهم كالاموات لا يأكلهم إلاّ الضباع . ثم يهدّد الروم بأن كل معركة بعد هذه سيكون النصرُ فيها للأمير لأن جنده قد نقيت من الجبناء ولم يعد فيها إلاّ الأبطال :

قلْ للدّمستق إنّ المُسْلمينَ لَكُمْ خانوا الأميرَ فجازاهم بما صنعوا
وجدْتموهُمْ نِياماً في دمائكُمُ كأنّ قَتلاكُمُ إيّاهمُ فَجَعوا
ضَعْفى تَعِفّ الأيادي عَنْ مثالهمُ مِنَ الأعادي وإنهمّوا بهم نزعوا[1]
لا تحسبوا مَن أسرتم كان ذا رَمَقٍ فليسَ يأكُلُ إلاّ الميّتَ الضَّبُعُ
وإنما عرّض اللهُ الجُنودَ لَكُمْ لكي يكونوا بلا فَسْلإذا رجعوا [2]
فكلّ غزْوٍ إليكم بعْدَ ذا فَلَةٌ وكلّ غازٍ لسيفِ الدولةِ التّبَعُ

(١) ضعفى : جمع ضعيف .
(٢) الفسل : الرذل الدنيء العاجز .

ويعد هذا التعليل الرائع للهزيمة يعزّي المتنبي سيف الدولة ويهوّن الأمر عليه فيجعله في مكان فوق الشمس والسيف يأتمر بأمره وأرض الروم مصطاف ومرتبع لجنده :

وهلْ يشينُكَ وقْتٌ كنتَ فارسَهُ ... وكان غيرك فيهِ العاجزُ الضَّرَعُ [1]
مَن كان فوق محلّ الشمسَ موضعه ... فليس يرفعه شيءٌ ولا يَضَعُ
الدَّهرُ معتذِرٌ والسّيفُ مُنْتَظِرٌ ... وأرضهم لكَ مُصطافٌ ومرتبعُ [2]

ولعلك تتفق معي على أن هذه القصيدة تعد من عيون شعر الجهاد التي برع فيها المتنبي ووُفّق إلى حد كبير .

وقد أخذ الدمستق بعد هذه المعركة يحوم حول الثغور الإسلامية حتى وصل إلى مَرْعش واستعدّ سيف الدولة لقتاله وأوقع به وفرّ الدمستق هارباً ولكن بعد أن هدم سُور المدينة فأعاد الأمير بناءه [3] :

وتحدث المتنبي عن هذه المعركة ووصف هزيمة الدمستق وهربه . فقال [4]:

سراياكَ تترى والدّمستق هاربٌ ... وأصحابهُ قَتلى وأمواله نُهبى [5]
أتى مرْعَشاً يستقربُ البُعْدَ مقبلاً ... وأدبَرَ إذا أقبلْتَ يستبعدُ القُرْبا [6]

ووصف السري الرفاء هذه المعركة وتحدث عن خيل سيف الدولة وقد تقدمت إلى أرض الروم تثير العِثيَرَ لسرعتها ويغطي الغبار وجوهها فكأنها

---

(١) الضارع : الضعيف .
(٢) مصطاف ومرتبع : المنزل في الصيف والربيع .
(٣) زبدة الحلب (١ / ١٢٢) .
(٤) ديوان المتنبي (١ / ١٨٨) .
(٥) السرايا : جمع سرية وهي الجماعة من الجيش .
(٦) مرعش:مدينة من اعمال حلب ولها مياه وزروع واشجار ولها سور منيع وهي قريبة من الحدث (بغية الطلب) ورقة (٣٠٧) .

مقنّعة ببراقع . وقد انتهت المعركة بعد أن دُكّتْ حصون الروم وأصبحت البلاد خراباً[1] :

خَطَا الدرْبَ الأصمّ إلى سهند وقعقعةُ الحديدِ لها حَديدُ
وقادَ الخَيْلَ قُبّاً يَقْتضيها ذخيرَةَ جُهْدِها أو يستزيدُ
ورارَتْ أرضَ خَرشَنَةَ رِعالاً فكادَتْ أرضُ خرشَنَةَ تميدُ
وجُزْنَ على الصَّعيدِ مُبَرْقَعَاتٍ براقِعُهُنّ ما نَسَجَ الصَّعيدُ
وباتَتْ تُوقَدُ النيرانُ فيها وسيّانَ الكَواكِبُ والوَقُودُ
وسُحْنَ بجانبيْ سَيْحانَ حتّى رَجَعْنَ وفَجّهُ المعمور بِيدُ

وعلى أثر هذه المعركة أرسل ملك الروم إلى سيف الدولة يلتمس الفداء والهدنة ، فدخل المتنبي على الأمير وعنده رسول ملك الروم ولبوءة مقتولة بين يديه ومعها ثلاثة أشبال حيّة فقال مرتجلاً[2] :

لَقيتَ العُفاةَ بآمالها وزُرْتَ العُداةَ بآجالها
وأقبَلَتِ الرّوم تمشي إليْ كَ بينَ اللّيوث وأشبالها
إذا رأتْ الأسْدَ مسبيّةً فأينَ تَفِرّ بأطفالِها

ويبدو أن أمور الهدنة والفداء كانت تأخذ شكلاً رسمياً فابن خالويه يقول : قال أبو فراس وفد رسول ملك الروم لطلب الهدنة فأمر سيف الدولة بالركوب والسلاح فركب من داره ألفُ غلام مملوك بألف جوشنٍ مذهّبٍ على ألف فرَس عتيق بألف تجفاف[3] وركب الناس والقواد حتى طبّق الجيش جبَل الجوشَن فقال أبو فراس[4] :

---

(١) ديوان السري الرفاه (٧٦) .
(٢) ديوان المتنبي (٣ / ٢١٥) .
(٣) التجفاف : آلة الحرب يلبسه الفرس والحصان وتشبه الدرع .
(٤) ديوان ابي فراس (١ / ٦٥) .

عَلَوْنا جوشناً بأشدَّ منهُ وأثبتَ عندَ مشتجر الرّماحِ
بجيشٍ جاش بالفرسان حتّى ظننتُ البرّ بحراً من سِلاحِ
وألسنةٍ من العَذباتِ حمْرٍ تخاطِبُنا بأفواهِ الرّماحِ

وفي سنة ٣٤٢ هـ خرج سيف الدولة لقتال الروم واكتسح كثيراً من المواقع ، فانتهز العدو الفرصة وأغار على بعض الأطراف الإسلامية ، فبلغ الخبر سيف الدولة فانطلق إثر العدوّ وأدركه عند نهر جيحان فأنشد المتنبي قصيدته اللامية التي تعد من روائع شعر الجهاد في الأدب العربي إذا لم تكن أروعه ، ولقد بدأ قصيدته بغزل حزين فيه رقة وعذوبة ووصف عدم تغير حاله بعد الأحبة وبقاءه على الحب والشوق وتصبره على بعدهم [١] :

لياليَّ بعدَ الظاعنينَ شكُولُ طِوالٌ وليلُ العاشقينَ طويلُ [٢]
يُبَنَّ لِيَ البدْرَ الذي لا أُريدُهُ ويخفِينَ بَدْراً ما إليهِ سبيلُ
وما عشتُ من بعد الأحبة سلوةً ولكنَني للنّائباتِ حَمولُ

وينتقل الشاعر إلى وصف المعركة فيصف هجوم الخيل على أرض العدو ويتحدث عن انطلاقها السريع ويشبهها بانطلاق السهام ، ويذكر أن أصواتها تنم عن النشاط والقوة وهي تُغذّ الرَّكض رافعة أذنابها في مرَح وصهيل . وهي لا تقف في بلد نهاراً حتى تغادره إلى غيره ليلاً حتى فاجأت الروم وأخذتهم على غرَّة وصُبَّ عليهم الموتُ من هذا العارض الذي أمطرهم حديداً :

رمَى الدَّربَ بالجرد الجيادِ إلى العِدا وما علموا أنَّ السهام خُيولُ [٣]

---

(١) ديوان المتنبي (٣ / ٢١٧) .
(٢) الظاعنين : جمع ظاعن : المرتحل . شكول : جمع شكل : اي شبيه .
(٣) الجرد : الخيل القصيرة شعر الجلد .

شوائلُ تشوال العقاربِ بالقنا لها مرحٌ منْ تحته وصهيلُ[1]
وخيلٍ براها الركض في كلّ بلدةٍ إذا عرّست فيها فليس تقيلُ[2]
فما شعروا حتى رأوها مُغيرةً قباحاً وأمّا خلقُها فجميلُ
سحائبُ يمطرْنَ الحديدَ عليهمِ فكلُّ مكانٍ بالسّيوفِ غسيلُ

ويستطرد الشاعر فيصف ما حاق بالروم من تدمير وقتل ويتحدّث عن تنقل الخيل السريع من مكان إلى آخر منزلة الهزيمة الساحقة بالروم وجندهم بقوله :

وعادَتَ فظنّوها بموْزارَ قُفّلاً وليس لها إلاّ الدّخول قفولُ[3]
فخاضَتْ نجيعُ الجمع خوضاً كأنّهُ بكلّ نجيع لم تخُضْهُ كفيلُ[4]
تُسايرُها النّيرانُ في كلّ مسلكٍ به القوم صرعى والدّيارُ طُلُولُ
وكرّتْ فمَرّتْ في دماءِ ملطيةً ملطيةُ أُمٌّ للبنينِ ثكولُ[5]
ورعْنَ بنا قلْبَ الفراتِ كأنّما تخرّ عليه بالرّجالِ سُيولُ
ودونَ سميساطُ المطاميرُ والملا وأوديةٌ مجْهُولةٌ وهجولُ[6]

ويصور المتنبي الموقعة تصويراً رائعاً حتى نظن أننا نشاهد أحداثها ونسمع

---

(١) شوائل : شالت العقرب ذنبها : رفعته . المرح : لعب يتبعه النشاط.
(٢) التعريس : نزول الركب آخر الليل للاستراحة .
(٣) موزار : حصن ببلاد الروم . قفول : رجوع .
(٤) نجيع : دم الجوف خاصة .
(٥) ملطية : مدينة كبيرة حصينة تعد من اكثر الثغور وحولها جبال كثيرة الاثمار ومياهها كثيرة من العيون ومن الفرات : بغية الطلب ورقة (٣١٩) .
(٦) سميساط : مدينة صغيرة على الفرات ولها قلعة حصينة : بغية الطلب ورقة (٣٣٠) . المطامير : جمع مطمورة وهي الحفرة الغائرة في الارض يخبأ فيها الطعام والشراب . والملا : جمع ملاة وهي الفلاة ذات الحر والسراب . الهجول جمع هجل : المطمئن من الارض .

صليل سيوفها وقرع رماحها ، ويصف فرار برداس ووقوع ابنه في الأسر ويتوعد الدمستق ويتهكم عليه في سخرية شديدة فيقول :

فلَمّا رأوْهُ وحْدَهُ قبْلَ جيشِهِ ... دروْا أنَّ كلَّ العالمينَ فُضُولُ
وأنَّ رماحَ الخَطِّ عنْهُ قَصيرَةٌ ... وأنَّ حديدَ الهندِ عنهُ كليلُ
فأوردهُمْ صدرَ الحِصانِ وسَيْفَهُ ... فتىً بأسُهُ مثلُ العَطاءِ جَزيلُ
جَوادٌ على العِلاّتِ بالمالِ كُلِّه ... ولكنّهُ بالدّارعينَ بَخيلُ
فوَدَّعَ قَتْلاهمْ وشيَّعَ فَلَّهُمْ ... بضَرْبٍ حُزونُ البِيضِ[1] فيه سهولُ
على قلبِ قُسطنطين منْهُ تَعَجّبٌ ... وإنْ كان في ساقيهِ منه كبولُ[2]
لعَلّكَ يوماً يا دمُستقُ عائدٌ ... فكَمْ هارِبٍ مما إليهِ يئولُ[3]
نجَوْتَ بإحدى مهْجَتَيكَ جريحَةً ... وخلّفْتَ إحدى مُهجَتَيكَ تسيلُ[4]
أتُسْلِمُ للخَطيّةِ ابْنكَ هارِباً ... ويسْكُنُ في الدّنيا إليكَ خليلُ[5]

ويلتفت المتنبي بعد ذلك إلى أعداء الأمير الحمداني من ملوك المسلمين ويعرض بهم قائلاً :

فَدَتْكَ ملوكٌ لم تُسمّ مَواضِياً ... فإنّكَ ماضي الشّفْرَتَينِ صَقيلُ
إذا كانَ بعضُ الناس سيْفاً لدولةٍ ... ففي النّاسِ بوقاتٌ لها وطُبول

ويبدو أن المتنبي قد قصد بهجائه معزَّ الدولة البويهي لتقصيره في حرب الروم أعداء الإسلام والمسلمين واكتفائه بالطبول والأبواق .

---

(١) الفل : المنهزمون . الحزن : جمع حزن : ما غلظ من الارض .
(٢) كبول : جمع كبل : القيد الضخم .
(٣) المهجة : الروح .
(٤) الخطية : الرماح .
(٥) ديوان المتنبي (٢ / ٥) .

ولقد تحدث المتنبي عن هذه المعركة في قصيدة ثانية مدح بها سيف الدولة وهنأه بعيد الأضحى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وأنشده إياها بحَلَب وهما على فرسيهما ، وذكر في قصيدته أسر ابن الدمستق — الذي مات في أسره بعلة اعتلّها — وفرار أبيه المشينَ وأشار إلى ترهّب الدمستق ودخوله الدَّير حُزْناً على ولده [1] .

ومعركة كهذه المعركة التي خاضها سيف الدولة لا بد أن تترك أثرها الكبير في نفوس الشعراء ولذلك تسابق شعراء الندوة السيفية للحديث عنها فقال أبو فراس يصف قسطنطين ابن الدمستق في أصفاده تحف به البطاريق وكأنه في موكب ولكن أي موكب أنه موكب الهزيمة [2] :

فلمّا رأتْ جيشَ الدّمستقِ راجعَتْ عزائمها واستنهضتها البصائرُ
وما زلنَ يحملنَ النفوس على الوجى إلى أنْ خضبنَ بالدّماءِ الأشاعرُ
وأُبنَ بقسطَنطينَ وهْوَ مُكَبّـلٌ تحفّ بطـاريـقٌ به وزراورُ
وولّى على الرسمِ الدّمستق هارباً وفي وجهه عذرٌ من السيفِ عاذِرُ

وقال النامي مشيراً إلى ترهب الدمستق ودخوله الدَّير [3] :

لكنّهُ طَلَبَ الترَهّبَ خيفَـةً ممّنْ لهُ تتَقاصرُ الأعْمارُ
فمكانُ قائمِ سيفِهِ عُكـازُهُ ومكانُ ما يتَمَنْطَقُ الزّنّارُ

ويتحدث السري الرفاء عن هذه الموقعة واصفاً شجاعة الأمير وبأسه وحسن بلائه بالروم فيقول [4] :

---

(١) ديوان المتنبي (٢ / ٥) .
(٢) ديوان ابي فراس (١ / ١١٨) .
(٣) شعر النامي (٥٧) .
(٤) ديوان السري الرفاء (٢٠٧) .

هيَ الصَّوارِمُ والخَطيّةُ الذّبُلُ والحَرْبُ كاشرَةٌ أنْيابُها عُصُلُ
واللّيْثُ أصحرَ حتى لا حصونَ لهُ ولا معاقلَ إلاّ البيضُ والأسَلُ
والرّومُ تبذُلُ ما رامتْ أسِنّتُهُ وهلْ لها بالمنايا أقبلتْ قِبَلُ

ويصف السري الرفاء جياد الأمير النشيطة السريعة العدوِ ، ويتحدث عمّا حاق ببلاد الروم من تدمير وخراب فيقول :

قادَ الجِيادَ له من وطئِها صَخَبٌ على الصّخورِ ومنْ أرْهاجِها طُلَلُ
يؤمّ خرشَنَةَ العُلْيا فيُصْحِبُها بالخيْلِ تصهلُ والراياتُ ترتجلُ
وحكّم السّيفَ فيها عادلاً فغدتْ وأهْلُها جزَرٌ للسّيفِ أو نَفَلُ
محمّرَةٌ من دماءِ القومِ مُشْعَلَةٌ سيّانِ فيها المنايا الحمْرُ والشُّعلُ

ويصف ابن نُباتة السعدي هذه الموقعة بقصيدة رائعة تحدث فيها عن اقتحام الأمير لبلاد الروم وتطوافه في ديارهم فاتحاً للحصون ومنكلاً بالأعداء وذلك حيث يقول :

فطوّفَ في بلادِ الرّومِ حتّى توهّمْناه قد ضلّ السّبيلا
وكيفَ يَضِلّ في سُبُلِ المعالي فتىً جعلَ الحسامَ له دليلا
كأنّ حصونَهُم نادتْ نداه أوِ اختارتْ بساكنها بَديلا
كأنّ بلادُهُم ضمّتْ عليهِ جوانحَها مخافةَ أنْ يَزُولا

وينتقل ابن نباتة فيصف خيل سيف الدولة النشيطة السريعة الجري والتي تقتحم المياه وتخوض الأنهار بقوله :

كأنّ الخيلَ من مرَحٍ ولهْوٍ تُنازعُهُ إذا نزَلَ الرّحيلا
دِقاق كالأهِلّةِ في الأعادي تعَلّمُ من ذوابِلِهُ النُّحولا

يخوضُ بها الفُراتَ فتىً يُلاقي بوجْهِ المرتِ في الغمراتِ سُولا
ولو أنَّ الفُراتَ عصى عليهِ لردَّ السيلَ منهُ أن يسيلا

ويشير الشاعر إلى هجوم الروم على بعض ثغور المسلمين وعودة سيف الدولة السريعة للانقضاض عليهم بقوله :

فما ضحِكَتْ بحصْنِ الرَّانِ حتّى بَكَتْ حلَبٌ ورَجّعَتِ العَويلا
فكَرَّتْ نحوَ عَوْلتها رُجُوعاً ككَرّاتِ اللّيوثِ حمَتْ شُبُولا
إلى بحرٍ بمَرْعَشِ من حَديدٍ فأوردَها شرائِعَهُ سُيُولا

ويتحدث عن أسر قسطنطين حديثاً سريعاً وموجزاً فيقول :

فقالوا هاكَ قسطنطينَ خُذْهُ ونَهْنِهْ منْ أعِنّتها قَليلا

وواضح أن المتنبي كان يفوق شعراء الندوة السيفية كافة في هذا اللون من الشعر فهو لا يُضاهى ولا يجارى لأنه شاعر الحرب وصاحب الكلمة النابعة من القلب والمليئة بالإحساس والتصوير الرائع للمعارك والحروب .

وتتوالى الحروب وتستمر بين سيف الدولة والروم ويحاول الأمير الحمداني في سنة ٣٤٣ هـ بناء قلعة الحدَث [١] التي خرّبها الروم في عام ٣٣٧ هـ حيث خرج إليها بجيشه وأخذ يعيد بناء سورها المتهدم وشارك في ذلك بنفسه لكي يتمكن من إنهاء عملية التحصين في أسرع وقت ممكن . ولكن ما أن تناهى خبر استرداد هذا الحصن إلى سمع قائد الروم برداس حتى سارع إلى لقاء سيف الدولة في جيش لجِب وكثيف يبلغ عددُ جنوده خمسين ألفاً من روم وروس وأرمن وصقلب وبلغار [٢] .

---

(١) الحدث : قلعة حصينة بين ملطية وسميساط وهي في الشمال الشرقي من مرعش : معجم البلدان (٢ / ٢١٠) .
(٢) نخبة تاريخية : كانار (١٠٨) .

وقد وقعت المعركة وانتصر المسلمون على الرغم من تفوق العدوّ في العدد والعُدّة . وقتل في هذه الحرب نحو ثلاثة آلاف من جنود الروم فضلاً عن الأسرى من بطارقة وجند ، وفي مقدمتهم تودس الأعور بطريق سَمَنْدو وصهر فوكاس كما أُسر أيضاً ابنُ ابنة الدمستق [1] .

ولقد وصف المتنبي هذه المعركة في قصيدته الميمية وصفاً حماسياً رائعاً فقال [2] :

على قَدْرِ أهلِ العزْمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قَدْرِ الكِرامِ المكارِمُ
وتعظُمُ في عينِ الصَّغيرِ صِغارُها ... وتصْغُرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ
يكلّفُ سيفُ الدولةِ الجيشَ همّه ... وقد عجزتْ عنه الجيوشُ الخضارمُ [3]

وينتقل المتنبي فيصف معركة الحَدَث الحمراء لكثرة دمائها وصفاً بارعاً ويذكر جماجم الروم الكثيرة التي بترتها سيوف الحمدانيين ويتحدث عن بنائها وقد اصطرعت السيوف واشتجرت الرماح فيقول :

هَلِ الحدَثُ الحَمراءُ تعرفُ لونها ... وتعلمُ أيّ السّاقيَيْنِ الغمائمُ [4]
سقَتْها الغَمامُ الغُرُّ قبلَ نُزُوله ... فلمّا دنا منْها سقَتْها الجماجمُ
بَناها فأعلى والقَنا تقرَعُ القَنا ... وموج المَنايا حَوْلها مُتلاطِمُ

وينتقل الشاعر إلى وصف بطولة الأمير الذي ذاد عن المدينة وحماها من غدر الروم وحلفائهم فيقول :

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٢٦) ، ابن الاثير (٨ / ١٨٣) .
(٢) ديوان المتنبي (٤ / ٩٦) .
(٣) الخضارم : جمع خضرم وهو الكثير العظيم من كل شيء .
(٤) الحدث : قلعة حصينة ويقال لها الحمراء لانها تربتها حمراء وقلعتها على جبل يقال له الاحيدب : معجم البلدان (٢ / ١١٨ ـ ١١٠) . بغية الطلب ورقة (٣١١) .

وكيف تُرجّي الرّوم والرّوس هدمها وذا الطّعْنُ أساسٌ لها ودعائمُ
وقد حاكموها والمَنايا حواكمٌ فما مات مظلومٌ ولا عاشَ ظالمُ

ويستطرد الشاعر فيصف جيش الروم اللّجب الذي أتى مدجّجاً بالسلاح وجمع أجناس عديدة تباينت لغاتها واختلفت لهجاتها فيقول :

أتَوْكَ يجرّونَ الحديدَ كأنّهُمْ سرَوْا بجيادٍ ما لهنَّ قَوائمُ
إذا بَرَقوا لم تُعرف البيض منهُمُ ثيابهُم مِنْ مثلِها والعمائمُ (١)
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أُذُن الجوزاء منهُ زمازمُ (٢)

تجَمَّعَ فيهِ كلُّ لسْنٍ وأُمّـةٍ فما تفهمُ الحدّاثَ إلاّ التراجِمُ

ويصف المتنبي المعركة التي احتدمت والتي هزم فيها العدو هزيمة نكراء ويتحدث عن تداخل صفوف الأعداء بعضها في بعض نتيجة للفوضى التي دبت بينهم واختلال نظامهم كما يشبه هاماتهم المتناثرة على سفوح الجبل بالدراهم التي تنثر فوق رأس العروس :

ضممتَ جناحيهم على القلبِ ضمّةً تموتُ الخوافي تحتها والقوادمُ (٣)
بضرْبٍ أتى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ وصارَ إلى اللّباتِ والنصرُ قادمُ (٤)
نثَرْتَهُمُ فوقَ الأحَيدبِ كُلّه كما نثرتْ فوقَ العروسِ الدراهم (٥)

---

(١) البيض : السيوف .
(٢) الخميس : الجيش العظيم . الجوزاء : نجمان معترضان في جوز السماء : اي وسطها .
(٣) يريد بالجناحين : ميمنة الجيش وميسرته : وهما جانبا العسكر . القوادم : هي الريش فوق الخوافي ، قيل انها عشر ريشات في مقدم جناح الطائر . الخوافي : ما تحت القوادم .
(٤) الهامات : الرؤوس . اللبات : النحور .
(٥) الاحيدب : جبل الحدث .

ويستطرد المتنبي فيصف خيول سيف الدولة التي كانت تتبع المنهزمين من الأعداء في تلك الذُّرى فتدوس وكُورَ العقبان التي فَرِحتْ بكثرة عدد جثث القتلى من الروم وظنت فِراخُ العقبان أن خيل الأمير أمهاتها لسرعة عدوها وأن هذه الخيل كانت إذا زلقت في صعودها الجبال تمشي على بطونها مشي الحيات وفي ذلك يقول :

تدُوسُ بك الخيلُ الوكورَ على الذّرا ... وقد كثرتَ حولَ الوكورِ المطاعمُ (١)
تَظُنّ فراخُ الفتخ أنّكَ زُرْتَهـا ... بأُماتِها وهي العِتاقُ الصلادِمُ (٢)

ويسخر المتنبي من الدمستق سخرية لاذعة لأنه يقدم كل يوم ثم يفِرّ ، وهو أجهل من الحيوانات التي إذا شمّتْ ريح الأسد وقفت ولم تتقدم ، بينما هو لا يرعوي ولا يرتدع بأسر ابنه وأصهاره ، ويمضي منهزماً وهو يشكر أصحابه لأن السيوف اشتغلت بهم عنه ويسرّ الدمستق لأنه نجا بنفسه :

أفي كلّ يومٍ ذا الدّمستق مقدِمٌ ... قَفاهُ على الإقدامِ للوجْهِ لائِمُ
أيُنْكِرُ ريحَ اللّيثِ حتى يَذُوقَـهُ ... وقدْ عرفَتْ ريحَ اللّيوثِ البَهائِمُ
وقدْ فجعَتْهُ بابنهِ وابنِ صهرِهِ ... وبالصّهْرِ حملاتُ الأميرِ الغواشِمُ
مَضى يشكُرُ الأصحابَ في فوته الظبى ... بما شغلتها هامُهُمْ والمعاصمُ (٣)
يُسرّ بما أعطاكَ لا عَنْ جَهالَةٍ ... ولكنّ مغنوماً نجا منكَ غانِمُ

ويصرح المتنبي بأن هذه الحرب ليست حرباً بين مَلِكين ولكنها حرب دينية بين الإسلام والشرك : فيقول :

---

(١) الوكور : موضع مبيت الطيور . الذرى : اعالي الجبال .
(٢) الفتخ : جمع فتخاء : اناث العقبان . والفتخ : لين المفاصل . العتاق : كرام الخيل . الصلادم : جمع صلدم : وهي الفرس الشديدة الصلبة.
(٣) الظبى : جمع ظبة : حد السيف . الهام : الرؤوس . المعاصم : جمع معصم : أطراف السواعد .

ولسْتَ مَليكاً هازماً لنصيرِهِ ولكنّك التّوحيد للشّركِ هازِمُ

وكان لهذه الموقعة العظيمة التي انتصر بها سيف الدولة على الروم انتصاراً ساحقاً صدى كبير في العالم الإسلامي آنذاك وتسابق شعراء الندوة السيفية في وصفها وتغنّى بها أبو فراس في رائيته [1] :

وحسْبي بها يومَ الأحَيدبِ وقْعَةً على مثلِها في العزّ تثنى الخَناصرُ
عدَلْنا بها في قِسمةِ الموتِ بينهم وللسيفِ حكم في الكتيبةِ جائرُ
إذِ الشيخُ لا يَلْوي ونقفورُ مجْحِرٌ وفي القيدِ ألفٌ كالليوثِ قساورُ
ولمْ يبقَ إلاّ صهره وابنُ صِهرِهِ وثَوَّرَ بالباقينَ مَنْ هو ثائرُ

ووصف السري الرفاء هذا الانتصار العظيم وسماه الفتح الذي أعز الله به الإسلام وتحدث عن الفرحة الكبرى التي عمت ديار المسلمين لهذا النصر الكبير [2] :

فَتَحٌ أعَزَّ به الإسلامَ صاحبهُ وردَّ ثاقِبَ نورِ المُلْكِ ثاقبهُ
سارت به البُرد منشوراً صحائفه على المنابرِ محموداً عواقبهُ
فكلّ ثَغْرٍ له ثغْرٌ يضاحكُهُ وكلّ أرضٍ بها ركبٌ يصاحبُهُ
عاد الأميرُ به خُضراً مكارمُهُ حُمراً صوارمهُ بيضاً مناقبُهُ

ويصف ابن نباتة السعدي بطولة الأمير الحمداني في الحدث ويخاطب ملك الروم قائلاً [3] :

ويُنْكِرُ يوماً بالأحَيدبِ كَذَّبَتْ به البيضُ حَدَّ البيضِ وهو صدوق

---

(١) ديوان ابي فراس (٢ / ١٤٥) .
(٢) ديوان السري (١٧ ــ ١٨) .
(٣) ديوان ابن نباتة المخطوط (٣) .

به شرِقَتْ من خشيةِ الموتِ بالحصى صُدورٌ وفارَتْ بالقلوبِ حلُوقُ

وفي قصيدة ثانية يتحدث عن هذه المعركة العظيمة فيقول :

وفي ظهْرِ الأحَيدِبِ حمّلتهمْ خِفافُ سيوفهِ عِبئاً ثقيلا
تألّفتِ الجماجمُ والهوادي كما تتألّفُ الغُرُرُ الحُجولا

وكانت آخر معركة وصفها المتنبي من معارك سيف الدولة مع الروم هي المعركة التي نشبت بينه وبين الروم في سنة ٣٤٥ هـ وكان سيف الدولة قد غزا بلاد الروم ووصل إلى بطن هِنْزِيطَ [١] وأخذ معه سفناً مخلعة وأطوافاً عبرَ عليها نهر « أرْسَناس » [٢] وقصد مدينة « تل بطريق » [٣] فأحرقها وبلغ من الروم مبلغاً عظيماً وقتل منهم نحو أربعة آلاف رجل [٤] . وأسر عدداً من بطارقتهم وقادتهم وجنودهم وغنم غنيمة كبيرة تفوق الإحصاء .

وأنشد أبو الطيب في ذلك قصيدته [٥] التي أولها :

الرّأيُ قبلَ شجاعةِ الشجْعانِ هوَ أوّلٌ وهيَ المحلُّ الثّاني
فإذا هُما اجتمعا لنفسٍ حُرَّةٍ بلَغتْ من العلياءِ كلَّ مكانِ
ولرُبّما طعَنَ الفتى أقْرَانَهُ بالرّأيِ قبلَ تطاعُنِ الأقْرانِ
لولا العقولُ لكان أدنى ضيغمٍ أدنى إلى شرَفٍ منَ الإنسانِ

---

(١) بوزن قنديل وبالزاي كما في معجم البلدان ، وذكر القاموس انها هنريط بالراء ... منصوصا عليها .
(٢) أرسناس : بالفتح ثم السكون وفتح السين المهملة ونون والف وسين اخرى : اسم نهر في بلاد الروم يوصف ببرودة مائه : معجم البلدان (١ / ٢٠٧) .
(٣) تل بطريق : يقع على الضفة الغربية للفرات وذكره ياقوت فقال : بلد كان بأرض الروم في الثغور خربه سيف الدولة وبينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ : معجم البلدان ٢ : ٤٠ .
(٤) نخبة تاريخية وأدبية (١١٨ / ١١٥) .
(٥) ديوان المتنبي (٤ / ٣٠٦) .

ونلاحظ أن الشاعر استهل قصيدتـــه بالحكمة وفضَّل العقل على شجاعة الأبطال والرأي على القوة أما إذا اجتمع العقل والشجاعة لنفس تأبى الذل والضيم ولا تلين قناتها للأعداء فإنها تبلغ من العلا أعلى المبالغ . ويفضل الشاعر العقل الذي لولاه لفضلت بعض الحيوانات على الإنسان .

ويصف المتنبي خيل الأمير – وهو كلف بوصفها كما لاحظنا من خلال دراسة شعره – فيحدث بأنها خيل كريمة أصيلة مؤدبة بآداب الحرب إذا خُلّيَتْ لم تبرح مكانها فكأنها مربوطة . ولشدة النقع المتطاير لا تبصر هذه الخيل بعيونها وإنما إذا سمعت شيئاً أرهفت آذانها فكأنها تبصر بها وفي هذه المعاني يقول :

قادَ الجِيادَ إلى الطّعانِ ولم يقُدْ ... إلاّ إلى العادات والأوطانِ
كلّ ابنِ سابقةٍ يغيرُ بحُسْنِهِ ... في قلْبِ صاحبه على الأحْزانِ
إن خلّيت رُبطتْ بآداب الوغى ... فدَعاؤها يُغني عن الأرسانِ
في جَحْفلٍ سترَ العُيونَ غُبارُه ... فكأنما يُبْصِرْنَ بالآذانِ

ويصف المتنبي براعة الخيول في خوض مياه النهر وعلى متنها الكماة الأبطال من جند سيف الدولة وعمائمهم منتشرة في الهواء كما يصف وثب الخيل في نهر « أرْسَناس » البارد الماء ولقد عبرت هذه الخيول النهر وهو كالفضة فلما نشبت المعركة وكثر القتلى من الروم جرت فيه دماءهم فعادت الخيل ووقد أصبح النهر أحمر كالذهب فيقول :

حتّى عَبَرْنَ بأرْسناسَ سَوابِحاً ... ينْشُرْنَ فيهِ عمائِمَ الفرسانِ
يقمِصْنَ في مثلِ المَدى منْ بارِدٍ ... يَذَرُ الفحولِ وهُنَّ كالخصيانِ [1]

---

(١) يقمصن : يثبن .

والماءُ بينَ عَجاجَتَيْنِ مخلّصٍ تتَفَرّقانِ بِهِ وتلْتَقِيانِ
ركَضَ الأميرُ وكاللّجَيْنِ حبَابَهُ وثنى الأعِنّةَ وهو كالعقيانِ (١)

ويفيض المتنبي من درر شعره فيصف السفن التي اجتاز بها جيش سيف الدولة النهر والتي ملأته وهي عقم لا تلد وألوانها سُودٌ مطليّة بالقار وشبّهها بالخيول العادية وهي تحمل النساء التي سبتها الفوارس وكأنهن غزلان والسفن مرابض لها فيقول :

فتَلَ الحِبال من الغدائرِ فَوْقَهُ وبنى السّفينَ لهُ منَ الصّلْبانِ
وحَشاهُ عاديَةً بغيرِ قَوائمٍ عُقْمُ البطونِ حوالِكَ الألوانِ
تأتي بما سَبَتِ الخيولُ كأنّها تحتَ الحِسانِ مرابِضُ الغِزلانِ

ويصف المتنبي هول المعركة التي نشبت والتي هُزِمَ فيها الروم شر هزيمة ويشيد بجند الأمير الذين تراهم فوق خيولهم فتحسبهم عقْباناً لخفتهم وسرعتهم وهم مجاهدون في سبيل الله ومن استُشْهِد منهم بالقتل صار حياً مرزوقاً عند الله . ويتحدث عن الروم الذين فرّوا منهزمين وهم يضربون بالرماح والسيوف حتى إن من هرب ونجا منهم عَدَّ نفسه مدركاً أمله . وفي ذلك يقول :

نَظَرُوا إلى زُبَرِ الحَديدِ كأنّما يصْعَدْنَ بينَ مناكِبِ العِقبانِ (٢)
وفَوارِسٍ يُحيي الحِمامُ نفوسُها فكأنّها ليستْ مِنَ الحَيوانِ
ما زِلْتَ تضربَهُم دِراكاً في الذُّرى ضرْباً كأنَّ السيفَ فيهِ اثْنانِ (٣)
خَصَّ الجَماجمَ والوجوهُ كأنّما جاءتْ إليكَ جسومُهم بأمانِ

---

(١) اللجين : الفضة. الحباب : الفقاقيع التي تعلو الماء. العقيان : الذهب.
(٢) الزبر : جمع زبرة : وهي القطعة من الحديد والمراد : السيوف . العقبان : جمع عقاب الطائر المعروف .
(٣) الدراك : المتتابعة . الذرى : جمع ذروة وهي أعلى كل شيء .

فرَمَوْا بما يرمونَ عنهُ وأدْبَروا يطْوُونَ كلَّ حنيّةٍ مِرْنانِ [1]
يغشاهُمُ مطَرُ السّحابِ مفَصّلاً بمُثَقّفٍ ومُهَنّدٍ وسِنانِ [2]
وإذا الرّماحُ شَغَلْنَ مُهجةَ ثائرٍ شغَلَتْهُ مهجته عنِ الإخْوانِ [3]

ويعود المتنبي فيذكر هذه الموقعة في قصيدة ثانية له وهي آخر قصيدة قالها في بلاط سيف الدولة قبل رحيله من حلب صوب مصر وأولها :

عُقْبى اليمينِ على عُقْبى الوغى ندَمُ ماذا يزيدُكَ في إقدامكَ القسمُ

وهي قصيدة رائعة لا تقل جودةً وحسناً عن قصيدته التي عرضنا لها بالتحليل .

ولقد تحدث أبو فراس عن هذه الواقعة بقصيدته الرائية فقال [4] :

وشَقَّ إلى ثَغْرِ الدّمستق جيشُهُ بأرضِ سلامٍ والقَنا مُتَشاجِرُ
سَقَى أرْسناسا مثلَهُ منْ دمائهِمْ عَشيّةَ غصَّتْ بالقُلوبِ الحناجِرُ
وباتَ يُديرُ الرأيَ من كلّ وجهةٍ وذُو الحَزْمِ ناهيهِ وذو العزم آمرُ

ويصف السري الرفاء هذه المعركة العظيمة ويتحدث عن بطولة الأمير وهزيمته للروم ويصف خيله الأصيلة السريعة النشيطة التي دهَمَت الروم وألمّت بارْسناس فحطمتهم وألحقت الخزي والعار بهم [5] فيقول :

وأبْرَقَ ما بينَ الدروبِ سَحابُهُ فصابَ ولكنْ صوْبَ بارقَةِ الدَّمُ

---

(١) الحنية : القوس . المرنان : التي يسمع لها رنين .
(٢) مفصلا : من تفصيل القلادة وهو ان يجعل بين كل لؤلؤتين خرزة . السنان : الزج الذي أسفل الرمح .
(٣) المهجة : الروح . الثائر : طالب الدم .
(٤) ديوان ابي فراس (١١٣) .
(٥) ديوان السري (٢٥٣) .

وإنْ ضُرِبَتْ دونَ الخَمِيسِ خيامُهُ فمِنْ خُلُقِهِ للرّعبِ جيشٌ مخيّمُ
ومُعْتَصِمٍ بالمشرفيّةِ لمْ يَكُنْ ليسْلَمَ منهُ في ذُرا الطودِ أعصمُ
سنابِكُها من تحتها تقرَعُ الصَّفا ورايَاتُها مِنْ فوقِها تترنّمُ
تُغيرُ على الأعداءِ والنجمُ غائرٌ وتَسْري به والليلُ أسودُ مظلِمُ
ألمّتْ بشَطّيْ أرْسَناسَ وللْقَنا شِطاطٌ فآبَتْ عنهُ وهوَ محَطَّمُ

وهكذا نلاحظ أن شعر الجهاد قد ترعرع ونما في عهد سيف الدولة وأن مجاهدة الأمير الحمداني المتواصلة للروم ألهمت الشعراء غُرَرَ القصائد وأوحت إليهم دُرَرَ المعاني ولقد كان في طليعة هؤلاء المتنبي الذي خاض الحروب المقدسة مع سيف الدولة فاقتحم نيرانها وكابد أهوالها ورأى ببصره وبصيرته وسائلها ودخائلها وعرف من جلائلها ووقائعها ما لا يعرفه إلاّ الخبير المدرك. فلذلك كان شعره الحربي أقوى في عباراته ومعانيه وأخيلته وبدائع فنونه . وشعر الجهاد له أصول وجذور في العربية قبل المتنبي كما هو الحال عند أبي تمام والبحتري . ولكنّ المتنبي هو الذي جعل هذا اللون من الشعر فنّاً قائماً بذاته فلقد وقف عيونَ شعره على سيف الدولة وجعل روائع حديثه رهينةً بوصف الحروب العربية البيزنطية التي نهض بها سيف الدولة طوال حكمه على خير الصور وأروع الرسوم .

وصف الطبيعة

يُعَدّ الوصف أشملَ الأغراض الشعرية التي عُرفت في الأدب وهو ليس بالفن الشعري المستقل فحسب بل هو عماد أكثر الألوان الشعرية من هجاء ورثاء وغزل وفخر . ولذلك صدق ابن رشيق حين قال « الشعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف »[1] وأصل الوصف في اللغة الكشف والإظهار يقال وصَفَ الثّوبُ الجسم إذا تجلى عليه ولم يستره[2] .

ولهذا يمكن القول بأن كلّ ما يقع تحت الحواسّ يمكن وصفه . بل إن الأفكار غير المحسوسة وأحوال النفس يمكن الإنسان أن يصفها .

والمراد بالوصف حين يعد غرضاً شعرياً هو الوصف المجرد لما يشاهده الشاعر أو يحسه من الظواهر الطبيعية والموجودات والمعاني الكونية النفسية .

وما دام للوصف هذه الدائرة المتسعة الشاملة فإن من الطبيعي أن يكون من أول أبواب الشعر نشأة . ولكن من الطبيعي أيضاً أن يتغير تبعاً لتغير البيئات والمجتمعات والمحسوسات وغير المحسوسات من عصر لعصر .

والوصف عند شعراء الندوة السيفية له آفاق رحبة ومذاهب متعددة ومن

---

(١) العمدة (٢ / ٢٩٤) .
(٢) لسان العرب : مادة وصف .

أهمها وصف الطبيعة فلقد وصفوا الطبيعة وأبدعوا فيها حتى أصبحوا أساتذة في هذا الفن .

ولقد فتنوا بجمال الطبيعة فصوروها أكمل تصوير ، صوّروا الرياض والبساتين والأزهار والأثمار والجداول الرّقراقة ووصفوا لأول مرة في تاريخ الشعر العربي تساقُط الثلج .

كذلك استطاعوا بقصائدهم أن يجمّلوا الطبيعة فوق جمالها ، وأن يصوروها في صورة بديعة مشرقة ، وأن ينطلقوا على سجيتهم إلى أقصى الآماد ، ولهذا أتوا بالمعنى البارع والصورة الفاتنة وبعثوا في موجودات الطبيعة حياة قوية ونشاطاً عظيماً .

والموضوعات التي سنطرقها في هذا البحث هي الموضوعات الجديدة المستحدثة في شعر الطبيعة والتي عنى بها شعراء سيف الدولة وأكثروا من ذكرها في أشعارهم كالروضيات والأنهار والمياه والثلوج والفصول .

ولقد نهض شعر وصف الطبيعة في رحاب سيف الدولة نهضة عظيمة وتبدو العناية بهذا اللون من الشعر في شعر شعراء العصر جميعاً ولكن أشهر هؤلاء الشعراء هم الصنوبري وكشاجم والسري الرفاء والببغاء . ويعد الصنوبري إمام هذه المدرسة وأول شاعر للطبيعة في العربية [٢] . ولقد مضى شعراء عصره ممن كانوا حوله ومَن خلَفهم في العصور التالية لا في المشرق وحده بل أيضاً في المغرب والأندلس يسيرون على هديه حتى ضرب المثل بروضياته ومن الحق أن ابن الرومي كان مشغوفاً بالطبيعة ووصف الرياض في الربيع ولكنه لم يعش لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرعُ فيه الوردَ والرياحين والأزهار ويتعهدها تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبري[٢] الذي صدق حين قال :

---

(١) الحضارة الاسلامية : آدم متز (٤٣٠) .
(٢) العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف (٣٦٣) .

أنا الذي شِعرُهُ وشْيُ الرياضِ فَلي في كلّ أرض عدتْ من وشيه لمَعُ[1]

الروضيات :

الشاعر فنّان يتملأ من الجمال حيث كان وتنفذُ بصيرته إلى أعماق الكائنات لتلمح مواطن الحسن فيها وقد تغفل العين العادية عن إدراك ما تدركه عيناه فقد يقف مبهوتاً أمام نبْتة في صحراء أو جدول ماء أو سروة باسقة أو نرجسَة ناعسة أو روضة ساحرة . والديار التي عاش فيها شعراء الندوة السيفية ذوات طبيعة خيّرة جميلة حباها الله بالحسن والجمال ومنحها المناظر الخلاّبة ونفحها بالألوان الفاتنة والرسوم الحالمة ، والبهجة الباسمة . فهام الشعراء بهذه الطبيعة التي اختصها الله بالرونق والرواء وكلفوا بحدائقها الغُنّ ورياضها الفيح ومحضوها أرق مشاعرهم وصادق أحاسيسهم وانفعالهم .

وهذا شاعرنا الصنوبري يغتلي افتتانه بالروض إلى درجة يحيطه فيها بهالة من القداسة والتبجيل ويعتده معها حرَماً موقوفاً على الكِرام ؛ ولو استطاع أن يكون قيّماً عليه لمنع أن تدنسه أقدام اللئام[2] . . . فيقول :

يا رِيمُ قومي الآنَ ويحَكِ فانْظُري ما للرّبا قدْ أظهرَتْ إعجابَها[3]
كانَتْ محاسنُ وجهها محجُوبَةً فالآنَ قد كشَفَ الرَّبيعُ حِجابها
وردٌ بدا يحكي الخدودَ ونرجسٌ يحكي العُيونَ إذا رأتْ أحبابها
وكأنَّ خُرَّمه البديعَ وقد بَدا روسُ الطواوسِ إذ تُديرُ رقابها[4]
والسّرْوُ تحسَبهُ العُيونُ غوانِياً قد شَمّرَتْ عن سُوقها أثوابها[5]

---

(١) ديوان الصنوبري (٣١٧) .
(٢) ديوان الصنوبري (٤٥٤) .
(٣) أعجابها : جمع عجب .
(٤) الخرم : زهر بنفسجي زاه .
(٥) السوق : جمع ساق .

لو كنتُ أملِكُ للرّياضِ صيانَةً يوماً لمَا وطِىءَ اللّئامُ تُرابَها

فهو يوقظ صاحبته لترى الروضة الخلاّبة وقد حسر الربيع نقابها فهبت خدودُها وعيونها الرّانية ورؤوسها الزاهية ، وكأنما السروُ غانياتٌ أقبلتْ مشمّرَةً عن سيقانها تُريد الرّقص كذلك يعد الروض مقدّساً ولو كان قادراً لمنع اللئام من أن تطأ ترابه أقدامُهم .

وليست الرياضُ في نظر الصنوبري مخلوقات جامدةً فهو يضفي عليها من خياله ما يجسّمها ويشخّصها ويغدقُ عليها الحياة فيجعلها تمور بالحركة والانفعالات والعواطف ، وفي ذلك يقول :

مَعَاهِدُ بل مآلِفُ باقِياتٌ بأكرَمِ معهدَينِ ومألَفَينِ
يُضاحِكُها الفُرات بكلّ فَجٍّ فتضحكُ عن نُضارٍ أو لجَينِ
كأنّ الأرض من حُمرٍ وصُفرٍ عروسٌ تُجتلى في حُلّتَينِ
كأنّ عِناقَ نهريْ ديْرِ زكّى إذا اعْتَنَقا عناقُ متيّمَينِ

ونود أن نقف هنا لكي نناقش رأي الدكتور درويش الجندي الذي يقول : إن وصف الطبيعة في الشعر السيفي نهض ولكنه مع ذلك بقي سائراً في اتجاه الوصف الطبعي للشعر العربي حسيّاً خالياً – غالباً – من الروح والاندماج في الطبيعة ذلك الاندماج الذي نلحظه في الشعر الغربي . فالطبيعة في أدبنا – على حد رأيي– لَذّة الحِسّ لا لذّة الروح كما هي عند أدباء الفرَنجَة الذين اتصلوا بالطبيعة بأرواحهم ومنحوها من الحب ما يمنحون الأحبّة والأصدقاء[1] . ولعلنا نجد في الأبيات السابقة الرّدّ المفحم على هذا التجني على شعر الطبيعة لدى شعراء الندوة السيفية . فواضح في الأبيات صلةُ

(١) الشعر في ظل سيف الدولة (٢٢٦ – ٢٢٧) .

الشاعر بالروض وما أثاره في نفسه من استجابة ذووية بعيدة عن النمط التقليدي، ولائح بروزُ التجاوب الوجداني بين الشاعر ومظاهر الروض الخلاّبة .

ولنستمع معاً إلى حديث الصنوبري عن الوَرد الذي وهَبَه نفسه ووجدانه ووصله بقلبه وإحساسه ففي ذلك الردّ المقنع والدليلُ القاطع على اندماج الشاعر في الطبيعة وغلبة لذة الروح على شعره بالإضافة للذة الحس [1] فقال :

وهَبْتُ للوردِ نفسي فطِبْتُ بالنّفس نَفسا
من أبيضٍ فاقَ نَوْعاً وأحمَرَ راقَ جِنسا
كـأنّما غَمَسَتْهُ في العُصْفُرِ اليدُ غمسا
ما كان لمّا تبَدّى إلاّ عَرُوساً وعِرْسا
وصَلْتُهُ وصْلَ مثلي لحْظاً وشَمّاً ولمسا
ولو يُمَسُّ بقَلْبٍ أفْناهُ قلبي مَسّا

ونحن نرى أن شعر وصف الطبيعة عند الشعراء الحمدانيين كان مليئاً بالروح وأن الشعراء اتصلوا بالطبيعة بروحهم ووجدانهم وتفاعلوا معها وامتزجوا بها وأبدعوا شعراً وجدانياً عظيماً .

ولقد تعلق الصنوبري بالروض وهام به ونظر إليه من خلال عواطفه ففي الرياض شبه من الأحبّاء ولهذا كان يرى في كل صورة من صور الروض لمحة من حبيب تشده إليه وتزيد تعلقه به فالغصن والشقيق والأقحوان والنرجس يراها قدوداً تتصف باللين والتأود أو خدوداً يجمّل حُمْرَتها سوادُ الخال . وفي ذلك يقول :

شَبَهُ الرَّوضِ بالحبائبِ قدْ زادَ المُحِبّينَ في محبّتِها

---

(١) ديوان الصنوبري (٢٠٠) .

كم من قدودٍ هناك من قُضُبٍ تسيل من لِينِها ونِعْمَتِها
كم وجْنةٍ خالُها يلُوحُ لنا سَوادُهُ في صفاءِ حمرَتِها
وكم ثنايا تَسْبي بنكهتِها وكم عيونٍ تُصيبي بلحظتِها
تُسارِقُ الغَمْزَ غمزَ خائفةٍ رقيبَها من خَفاءِ نَظْرَتِها

وكان الصنوبري يتعلق بحلب تعلقاً عظيماً وارتباطه بها وثيق الصلة بحبه للطبيعة ورياضها فأحب جبلها « جوشَن » ورياضه :

وللزَّهْرِ من حلَبٍ منزلٌ تُثابُ العيونُ على حجّهِ
أعِدْ نحوَ جوشَنِه نظرةً إلى سمته وإلى بُرجهِ
لترتاض نفسك من روضه ويمرح طرفك في مرحهِ

ولا يقل عن هذه الأبيات براعةً وفتنةً وصفه لرياض نهرها قُويق حيث يقول :

رياضُ قُوَيْقٍ لا تزالُ مَرُوضَةً يجاورُ فيها أحمرَ اللّونِ أبيضَهْ
يُعارِضُنا كافُورُه كلّ شارِقٍ إذا ما انصبا مرّتْ به متعرّضَهْ
إذا ما طفا النّيلوفرِ الغضّ فوْقَهُ مفتّحَةً أجْفانَهُ أو مغمّضَهْ
حَسِبتَ نجُوماً فوقَهُنّ تتابَعَتْ فُرادى ومَثنى في سماءٍ مفضّضه[1]

وكشاجم — صديق الصنوبري الذي سار في طريقه وكلف بالزهو وهام به . وتغنّى بالرياض غِناءً ينطق بالحب العميق والشعور الصادق . يتغزل برياض نهر قويق وما حوته من شقيق أحمر وأقحوان كاللؤلؤ ونرجس غض وبهار منضد ونيلوفر متوقّد[2] :

---

(١) ديوان الصنوبري (٢٥٦) .
(٢) ديوان كشاجم (٤٨ -- ٤٩) .

للنَّهْرِ نَهْرٍ قُـــويقٍ عندي يدٌ ليس تُجحَدْ
والأرضُ تُكسى بزهر الرّ ياض وشْياً مُعَمَّدْ
كأنَّ خُرَّدُ عَـــينٍ بها يضاحكنَ خُرَّدْ
وحُمْرَةٌ في شَقيقٍ وخُضْرَةٌ في زَبَرْجَدْ
وأُقحُوانٌ كَعِقْـــدٍ من لؤلؤ قَدْ تبَدَّدْ
والنّرجسُ الغَضّ يرْنو إلى البَهارِ المنضّدْ
كما أشـــارَ حَبيـــبٌ إلى حَبيبٍ بمَـــوعِدْ

ونلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر قد جعل اهتمامه في الصنعة والتشبيهات حتى إنه بعُدَ بنا عن الشّذى والعبير ودفعنا عن الصبا والرحيق إلى مجرد ذكر الشقيق والأقحوان والنرجس والبهار ذكراً سريعاً فعنى بالتشبيهات عن جوهر الموضوع نفسه .

على أن الشاعر إذا قصر في ناحية أو شابت فنّه فيها شائبة ، فليس معنى هذا أنه متخلف أو مقصّر في شعره كله .

فكشاجم له من الصور الطبيعية ما يتتبع فيه الموصوف ويجلّيه تجليةً إنسانية ويصوّره ذا عواطف وأحاسيس :

ولقد وصف رياض حلب أروع وصف وأحفله بالصور والرسوم[1] حين قال :

أرَتْكَ يَدُ الغَيثِ آثـــارَها وأعْلَنَتِ الأرْضُ أسرارَها
فما تَقَعُ العَينُ إلا عـــلى رِياضٍ تصنّفَ نُوارَهـــا

(١) المصدر نفسه (٤٨) . الاعلاق الخطيرة : ابن شداد (١/١٥٧ــ١٥٨).

يُفَتّحُ فيهـا نَسيمُ الصَّبا جَناها فيَهْتِكُ أستارَهـا
ويُدْني إلى بعضهـا بعْضها كضمّ الأحبّة زُوّارَهـا
تَغُضّ لنرجسِهـا أعْيُناً وطَوْراً تُحَدّقُ أبصارَها
إذا مُزْنَةٌ سَكَبَتْ مَاءها على بُقْعَةٍ أشعلتْ نارَها
وما أمْتَعَتْ جارَها بَلْـدَةٌ كما أمْتَعَتْ حَلَبٌ جارَها
هيَ الخلدُ تجمَعُ ما تَشْتَهي فزُرْها فطوبى لمَنْ زارَها

إنه يذكر الغيث الهاطل الذي يكسُوها بالأزهار المتعانقة والتي يقبّل بعضها بعضاً . وليس هُناك من مدينة تَحْظى بجمالٍ كجمال حلَب فهي الخُلْدُ تجمعُ الحسْنَ والجَمال .

وسار الشاعر السري الرفاء في طريق كشاجم ونهَجَ منهجهُ وأجاد في الوصف إجـادةً بارعة جعلته يعَدّ من أكبر الوصّافين في عصره وهو أحسن شعره وألطفه فهو وصّاف بارع يسجّل في شعره ما يشاهده من مناظر تؤثّر فيه ورسّامٌ فنّان يصوّر بريشته ما يحسّه في أعماق نفسه [1] وهو خِلّ الشرْبِ وصديقُ الرّوض يعوده دائماً ويتغنى بمحاسنه ويطرب للقائه :

وبِساطِ ريحان كماءِ زَبَرْجَدٍ عبِثَتْ بصفحته الجَنوبُ فأرْعَدا
يَشتاقُهُ الشّرْبُ الكِرامُ فكلّما مَرِضَ النّسيم سعَوْا إليه عُوّدا

ومن بديع وصفه للروض قوله [2] :

أعادَ الحَيا سُكْرَ الشّباب وقد صحا وجدّدَ من عَهدِ الرَّبيعِ الذي انمحى
وباتَ زِنادُ البرقِ يقدحُ نـارَهُ على الآس حتى اهتزّ فيهِ وقدّحا

---

(١) الحضارة الاسلامية : آدم متز (٤٧٠) .
(٢) ديوان السري الرفاء (٧٣) .

كأن حمامَ الروض نشوان كلّما ترنّمَ في أغصانه وتَرَجّحا
ولاذَ نسيمُ الرَّوضِ من طول سيره حَسيراً بأطراف الغُصونِ مطَلّحا
فباشَرَ وِرْدَ الأقحُوانِ مُشَرّفاً وصافَحَ وِرْدَ الباقلاءِ مجَنّحا
وحلّلَ منْ أزرارِهِ النّور فاغتدى كلَفْظِ حبيبٍ هَمَّ أنْ يتَفَصَّحا
وشَقَّ على لونِ الخدودِ شَقائِقاً رأتْهُ عُيون السَّرْب أبهى وأصلحا

وهو يصف الغيث الذي أعاد الشباب للروض وجدَّد عهد الربيع به والبرق اللاّمع على وجَنات الآس والحَمام النشوان المغرّد ونسيم الرَّوض العليل الذي يقبّل الأقحوان ويعانق الباقلاّء والأزهار ، وهو لا ريب قد استخدم الفن البديعي أتم استخدام ، لكنّ هذا الفن لا يثقل بل يخفّ حتى لا يشعر القارىء إلاّ بأن الشاعر دقيق الحس حسن البيان .

الزَّهْرِيّاتُ :

تعشق شعراء الندوة السيفية الأزهار وهاموا بها وأنشدوا القصائد الرائعة الشاملة لأصنافها وألوانها ، وأتوا بالعجَب العُجاب ، وخصّوا كل لون من الأزهار والثمار بأوصاف مستقلة هدفوا إليها وسَعوا في تصويرها .

ولعل أعظم الشعراء في هذا الباب هو الصنوبري فقد دعاه مؤرخو الأدب بشاعر الرياض والزهر وديوانه روض تتمايل أغصانه بالثمر وتهتز نباتاته بالنور والزهر .

ولقد فُتِنَ الصنوبري بالطبيعة وأُولِـع بالروض وتعشق الأزهار . فقال[1]:

زَهْرُ الرّياضِ إذا هيَ ابتَسَمَتْ تدعو فيُسرعُ نحْوَها الحَلَقُ

---

(١) الحضارة الاسلامية (١ / ٤٧٣) .

فتَظَلّ تَنْطُقُ وهْيَ ساكِتَةٌ إنّ الرّياضَ سُكُوتُها نُطْقُ

ووصف النّرجس والورد وأقام بينهما معارك على نحوٍ يزيد في تصوير فتنتها [1] فقال :

زعَمَ الوَرْدُ أنّهُ هوَ أبهى مِنْ جميعِ الأنْوارِ والرّيحانِ
أيّما أحسنُ : التوَدّدُ أم مُقْـ ـلَةُ رِيمٍ مَريضَةِ الأجفانِ [2]
أم فماذا يرجو بحمرته الوَرْ دُ إذا لم تَكُنْ عَيْنانِ
فزَها الوَرْدُ ثمّ قالَ مجيباً بقِياسٍ مُستحسنٍ وبيَانِ
إنّ وَرْدَ الخدودِ أحسنُ منْ عَيْـ ـنٍ بها صُفْرَةٌ منَ اليرَقانِ [3]

ونلاحظ أن الشاعر كان يفضّل الورد ضمناً وإن بدا في موقف الحكَم المحايد . وأقام الشاعر معركة أخرى جمع فيها شتى أنواع الأزهار وحاول فيها أن ينتصر للنرجس وفيها يقول [4] :

خَجِلَ الوَرْدُ حين لاحظَه النّرْ جسُ من حُسْنِهِ وغارَ البَهارُ [5]
فعَلَتْ ذاكَ حُمْرَةٌ وعَلَتْ ذا حَيْرَةٌ واعترى البَهارَ اصْفِرارُ
وغَدا الأقحُوانُ يضحكُ عجْباً عنْ ثنايا لثاتُهُنّ نُضارُ [6]
عِنْدَها أبْرَزُ الشّقيقُ خدوداً صارَ فيها منْ لطمَةِ آثارُ [7]

---

(١) فوات الوفيات ج ١ (١١١) .
(٢) الرئم والريم : الظبي الخالص البياض .
(٣) اليرقان : آفة من آفات الزرع ، وقيل دود يكون في الزرع وهو ايضا مرض يصيب الناس .
(٤) ديوان الصنوبري (٧٨) .
(٥) البهار : نبت اصفر طيب الرائحة .
(٦) الاقحوان : زهر ابيض في وسطه اصفرار واوراقه مفلجة ولذلك يشبهونه بالاسنان .
(٧) الشقيق : ورد كبير احمر .

وأضرَّ السّقامُ بالياسمينَ الـ غضّ حتّى أذابَهُ الإضرارُ

ويمضي الصنوبري على هذا النمط واصفاً القتال بين النرجس والأزهار المختلفة وكل منها يبوء بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة.

ويعد الصنوبري النرجس ملِكاً للأزهار يقول في ذلك [1] :

أرأيتَ أحسنَ من عيونِ النّرجسِ أمْ من تُلاحظُهنّ وسْطَ المجلسِ
دُرَرٌ تَشَقّقُ عن يواقيتٍ على قُضُبِ الزّمرّدِ فوقَ بُسطِ السندسَ
أجفانُ كافورٍ حَفَفْنَ بأعْيُنٍ من زعْفرانٍ ناعماتِ الملْمسِ
فكأنها أقمارُ ليلٍ أحْدَقَتْ بشموسِ أفقٍ فوْقَ غصنٍ أملسِ

وترنّم الوأواء الدمشقي بجمال النرجس وقوامه المعتدل ومآقيه الناعسة فقال [2] :

ونَرْجسٍ للنسيمِ مُعتنِقٍ يسْهَرُ طَبْعاً وما بهِ أرَقُ
كأنّه والقَوامُ مُعْتَدِلٌ وفي المآقي من عقده عَبَقُ
أجْفانُ دُرٍّ على ذُرى قضُبٍ تَقْطِرُ مسكاً وما بها عَرَقُ

ومحمد بن هاشم الخالدي من الشعراء الذين فُتِنوا بشقائق النعمان وشبّهها بالياقوت والخدود الأرجوانية [3] .

وصُنْعُ شقائقِ النّعمانِ يحيي يواقِيتاً نُظِمْنَ على اقترانِ
وأحياناً تشبّهها خدوداً كسَتْها الريحُ ثوباً أرجواني

---

(١) فوات الوفيات : الكتبي (١ / ٦١) ، طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ.
(١) ديوان الوأواء المخطوط (٥٥) .
(٣) فوات الوفيات : الكتبي (٢ / ٢٧١) .

شقائقُ مثلُ أقداحٍ مـــلاءٍ وخشخاشٍ كفارِغَةِ القناني
ولمـــا غـــازَلَتْها الريح خِلْنا بها جيشيْ وغىً يتقاتَلانِ
تَخالُ بـــهِ ثُغُوراً باسماتٍ إذا مـــا افترّ نَوْرُ الأقحوانِ

وصوّر كشاجم شقائق النعمان تصويراً جميلاً وشبّهها بشعلة نار متقدة أو مطرفٍ أحمر لأمير في محفل كبير [1] فقال :

وإذا ما بدا الشّقائقُ فيهـــا خالَهُ النّاظرون شُعلةَ نارِ
أو كما نُشّرَتْ مطارفُ حمْرٌ لأميرٍ في مَحفلٍ جرّارِ

ومن أزهار حلب الرائعة الجمال زهرةُ البنَفسج التي كلف بها شعراء حلب في عصر سيف الدولة فوصفها الزاهي فقال [2] :

ولازَوْرَديّةٍ أوْفَتْ بزرْقَتِها بينَ الرّياضِ على حمرِ اليواقيتِ
كأنها فوقَ قاماتٍ ضعفنْ بها أوائلَ النّارِ في أطرافِ كبريتِ

ويصف الوأواء البنفسج فيشبّهه بالنار عند إيقادها فيقول [3] :

وبدَا البنَفْسَجُ لي فقلْتُ لخاطري في وصفِهِ كالنّارِ في إيقادِها
حكَتِ الشّكُولُ بخدّها أوراقَهُ وحكى لذي التّشبيهِ صِبْغَ حدادِها
وبدَتْ بزرْقَةِ بعضِهِ خَمْرِيّةً فكأنّها في اللّونِ لونُ فؤادِها

وكما وصفوا الأزهار وصفوا الثمار التي هي من نتاج الزهر والشجر

---

(١) ديوان كشاجم (١٤٩) .
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٣٧٢) .
(٣) ديوان الوأواء المخطوط (٥٧) .

وحظيت الثمار في جمال منظرها وبديع مشهدها وطيب رائحتها بمكانة مرموقة في الشعر السيفي ولدى شعرائه .

وكان الصنوبري والسري وكشاجم أكثرهم وصفاً لها وتصويراً لروعتها .

والصنوبري يصف الثمار على نحو ما يصف الزهر مجلّياً لمعاني الحسن الطّبَعي ، غير متأثّر بنداء المعدة كما صنع ابن الرومي . . . قال يصف التفاح وينعته بصديق الأرواح ويشبه لونه الأحمر بلون خدود الغيد الحسان [1] :

فتَنــاوَلْتُ منه صادقةَ الرّيـ ... ـحِ تسمّى صديقةَ الأرواحِ
وشّحَتْها يداهُ من خالص التبْـ ... ـرِ بسطرٍ يجولُ حولَ الوِشاحِ
كُسِيَتْ صبغةَ الملاحةِ لمّا ... صُبغَتْ صِبغةَ الخدود المِلاحِ

ويصف السّفَرْجل ويشبّهه بالحبيب حسناً وجمالاً ويشبه لونه بلون الذهب الصافي فيقول [2] :

لكَ في السّفَرْجَلِ منظرٌ تحظى بهِ ... وتفوزُ منهُ بشمّهِ ومَذاقِهِ
هو كالحبيبِ سعِدْتَ منهُ لحسْنه ... متأمّلاً وبلَثْمِهِ وعِنــاقِهِ
يحكي لنا الذّهَبَ المصفّى لونُهُ ... وتزيدُ بهجَتُهُ على إشراقِهِ
فالشّطْرُ من أعلاهُ يحكي شكلُهُ ... ثَدْيَ الكَعابِ إلى مَدارِ نطاقِهِ

وقال يصف الموز ويشبّهه وهو بين أحضان أوراقه الخضر بمخازن من ذهب أصفر لُفّت بأردية خضر [3] :

---

(١) ديوان الصنوبري (٤٦٨) .
(٢) المصدر نفسه (٤٨٣) .
(٣) ديوان الصنوبري (٤٩) .

كأنّما الموْزُ الذي قد بَـدا للعَينِ في أوراقِهِ النّضْرِ
مخازِنٌ مِنْ ذهبٍ أصْفَرٍ لُفِفْنَ في أرْدِيَةٍ خُضْرِ

ووصف السري الرفاء العنب وشبّهه بالذهب وشبه أوراق الكرْمة الخضراء بأثواب من سندس [1] فقال :

والكرْمُ مشتبكُ الأفنانِ توسعُنا أجناسُه في تساوي شربها عَجبا
فكَرْمَةٌ قَطَرَتْ أغصانُها سبجاً وكرمةٌ قطَرَتْ أغصانها ذهبا [2]
كأنما الوَرَقُ المخضرّ دونهما غيران يكسوهما من سندس حجبا

وكما وصف السري العنب وصف أيضاً شجر النّخل الباسق وشبّه شماريخه بالعقيان [3] :

فالنخلُ من باسقٍ فيه وباسقةٍ يُضاحكُ الطّلع في قنواته الرّطَبا
أضحَتْ شماريخهُ في النّحرِ مطلعةً إما ثُرَيا وإمّا مُعْظماً خُضِبا
تُريكَ في الطلّ عقياناً فإنْ نظرتْ شمسُ النّهارِ إليها خِلتها لهَبا

ووصف الليمون وشبهه بالنجوم في سماء الغصون وبالأكر المصاغة من الفضّة والمشابة بالذهب [4] فقال :

واصْطَبَحْناها على نَهْرٍ بصَفْوِ الماءِ يجري
ظَلّلَتْهُ شَجَراتٌ عِطْرُها أطْيَبُ عِطْرِ
فلَكٌ أنْجَمَهُ اللّيْـ ـمُونُ من بِيضٍ وخضْرِ

---

(١) ديوان السري (٣٥) .
(٢) السبح : خرز اسود .
(٣) ديوان السري (٣٥) .
(٤) المصدر نفسه (١٣٣) .

أكرّ من فِضّـةٍ قَـــدْ شابَهـــا تَلْويحُ تِبْرِ

ووصف أبو فراس الرمان وشبهه بقراضة ذهب مغطاة بثياب عصفرية اللون : فقال [1] :

وجُلّنـــارٍ بمَشْرِقٍ على أعـــالي شجَرَهْ
كـــأنّ في رؤوسِهِ أصْفَرَهُ وأحْمَرَهْ
قُراضَـــةٌ من ذَهَبٍ في خِرَقٍ مُعَصْفَرَهْ

ووصف كشاجم النّارنجَةَ وشبهها بنجمة من التبر تدلّتْ في سماء من الزّمرّدِ وشبهه شذاها بالمسك فقال [2] :

كـــأنّما النّارنْجُ لما بَدَتْ أغصانُه في الوَرَقِ الخُضْرِ
زُمُرّدٌ أبْدى لنا أنجُمـــاً معجونَةً من خالص التّبرِ
إذا تَهيّأنـــا بها خِلْتَنـــا نستَنْشِقُ المسْكَ من الخمْرِ

وهكذا نلحظ افتتان شعراء الندوة السيفية بالأزهار والثمار وبراعتهم في وصفها وتأسيسهم مدرسة فنية في هذا اللون من الشعر ولقد انعكست آثار هذه المدرسة في الشرق والغرب وتأثر بها أدباء بغداد وشعراء الأندلس وبلغ من إعجاب الأندلسيين بها أن سموا شاعرهم المبدع ابن خفاجة بصنوبري المغرب تأسياً بالشاعر المشرقي الكبير .

الأنهار والمياه :

برع الشعراء الحمدانيون في هذا اللون من الشعر وأكثروا من وصف

---

(١) ديوان ابي فراس (٢ / ١٩٤) .
(٢) ديوان كشاجم (٨٥) .

الأنهار وبرعوا في وصف المياه وما يتصل بها من سواقٍ وبرك وغدران وغيرها . وكان أبرعهم وأكثرهم خوضاً في هذا المضمار كلٌ من الصنوبري وكشاجم والسري الرفاء .

ولقد تغنّى الصنوبري بنهر قُوَيقٍ ملء الفم والقلب وفتن النـــاس بغنائه فقال [1] :

قُوَيْقُ لَـــهُ عهدٌ لدينا وميثاقُ ... وهذي العُهودُ والمَواثيقُ أطواقُ
نفى الخَوْفَ إنّا لا غريقَ حِياله ... فنحنُ على أمن وذا الأمنُ أرزاق
ونَزّهُهُ إلاّ سفينَـــةَ تمتَطي ... مطاهُ لها وخَدٌّ علَيْهِ وأعناقُ
وإنْ ليس تعْتاقُ التّماسيحُ شربه ... إذا اعتاقَ شربَ النّيل منهنّ مُعتاقُ
أقامَ بهِ التمساح سوقاً ولم تزَلْ ... تُقامُ على شطّيهِ للطّيرِ أسْواقُ

وقد مثّل النهر في جو السلام والأمن فلا تمساح ولاغرق ولا اصطخاب .

ويستطرد الصنوبري فيصف جماله الطبعيَّ الهادىء ويتمثل فيه صفاء البلّور وبياض اللؤلؤ وألوان النبت والزّهر ويزيد جماله طيبُ الرائحة وشفاؤه للشارب .

وفاضَتْ عيونٌ من نواحيهِ ذُرّفٌ ... ولمّا تُعاونها جُفونٌ وامـــاقُ
هوَ الماءُ إن يوصَفْ بكنْهِ صِفاته ... فللماءِ إصغاءٌ لدَيْهِ وإطراقُ
ففي اللّوْنِ بلّوْرٌ وفي اللّمع لؤلؤٌ ... وفي الطيب قنديد، وفي النفع دِرياقُ [2]
إذا عبثَتْ أيدي النسيمِ بوجْهِهِ ... وقد لاحَ وجهٌ منه أبيضُ برّاقُ

---

(١) ديوان الصنوبري (٤٢٣ – ٤٢٤) .
(٢) القنديد : عسل قصب السكر اذا تجمد .

فطَوْراً عليهِ منهُ درْعٌ خَفيفَةٌ وطَوْراً عليه جوشنٌ منه رقراقُ

وهو عاشق لقُوينٍ بل الناس جميعاً عاشقون له على حدّ رأيه وفي ذلك يقول :

وقدْ عابَهُ قَوْمٌ وكلُّهُمُ لَـهُ على ما تعاطَوْهُ من العيب عُشّاقُ
وقالوا : أليس الصيفُ يُبلي ثيابَهُ فقلتُ : الفتى في الصّيف يقنعه طاقُ

ووصف نقص مائه في الصيف فقال : إنه ينحل وينمو في الشتاء شأن أصحاب الأمزجة الصفراوية الذين تنحل أجسامهم في الصيف ويوافقهم الشتاء [1] :

قُوَيْقٌ على الصّفْراء رُكّبَ جسمه رُباهُ بهذا شُهَّدٌ وحدائقُهْ
إذا جَدَّ جِدَّ الصَّيفِ غادرَ جسمَهُ ضئيلاً ولكن الشّتاء يُوافقُهْ

ويداعب الصنوبري النّهر الذي أحبّه حباً عظيماً ويصف حاله في الصيف فيقول [2] :

قُوَيْقٌ إذا شمَّ ريحَ الشّتا ءِ أظْهَرَ تِيهاً وكِبْراً عجيبا
وإنْ أقبلَ الصيفُ أبصرْتَهُ ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا
إذا ما الضَّفادعُ نادَيْنَهُ قُويقُ قويقُ أبي أن يُجيبا
تمشي الجَرادَةُ فيهِ فلا تكادُ قَوائِمُها أنْ تَغيبا

وكما وصف الصنوبري نهر قويق وتغنّى بحسنه وصف نهر الفرات وترنّم بجماله ورياضه في قوله [3] :

---

(١) ديوان الصنوبري (٤٢٥) .
(٢) الروضيات (٤٣) .
(٣) ديوان الصنوبري (٤٧٠) .

ولَقَدْ ظَمِئْتَ إلى الفُرا ... تِ بكلّ ذي كَرَمٍ ومجْدِ
والشّمسُ عندَ غروبها ... صفراءُ مذهَبَةُ الفُرنْدِ
والماءُ حاشِيَتاهُ خَضْـ ... ـراوانِ منْ آسٍ ورنْدِ
تحبوهُ أيدي الرّيحِ إنْ ... ولّتْ على قُرْبٍ وبُعْدِ
بطَرائِفٍ مِنْ فِضّـةٍ ... وطَرائِفٍ منْ لازَوَرْدِ

وهو يعبر عن شوقه إلى الفرات ويصف لحظة الغروب والرياض الغنّ المحيطة بضفّتيه ثم ينتقل إلى وصف السفن التي تمخر عبابه ويشبّهها بالطير ويشبّه مدّ النهر وجزره بتململ المحب الذي تندلع في قلبه النيران لصدّ محبوبته فيقول :

والسُّفْنُ كالطّيْرِ انبَرَتْ ... في الجوّ من مَثْنى وفَرْدِ
حتّى إذا جَـزَرَ الفُـرا ... تُ مضى وأعْقَبَهُ بمَدّ
ألْفَيْتَـهُ وكـأنّهُ ... مُلْقًى عَلَيهِ رِداءُ وَرْدِ
مُتَمَلْمِلاً كالصَّبّ أوْ ... ذِنَ منْ أحبّتهِ بِصَدّ
وكـأنّما بحَشاهُ مـا ... بحشايَ من قلقٍ ووَجْدِ

ووصف الأنهار والمياه صفة بارزة في شعر السري الرفاء ولقد قال يصف دولاباً يرفع الماء من النهر إلى الأرض ليرويها واتخذ من حركاته وأصواته وكيزانه مراتع للوصف وهو يشبّه صوت الدّولاب في حالتي الرفع والخفض بندب أطفال زنج رضع ويشبّه كيزانه بالكواكب التي تطلع ثم لا تلبث أن تختفي وذلك حيث يقول [1] :

الماءُ يلعبُ بالأراقِمِ موجُهُ ... والسفن بالأذناب فيهِ عقاربُ

---

(١) ديوان السري الرفاء (٤٠) .

والصوت من دولاب كلّ متوّجٍ أطفالُ زُنْجٍ للرّضاعِ نوادبُ
فانظرْ إليهِ وكأنّهُ وكأنّما كيزانه والماءُ منها ساكبُ
فلكٌ يدورُ بأنجمٍ جُعلتْ لهُ كالعِقد فهي شوارقٌ وغواربُ

ووصف غديراً صافي الماء رقراقاً أحاطت به الرياض والأزهار فقال [1] :

رُبَّ صافٍ رقْرَقَتْهُ الرّ يحُ في متْنِ صِفاتِ
عَبِقٌ منْ جرّ أذْيا ل رِياحٍ عَبَقاتِ
صافحَ الرّكبانُ منْهُ صَفْحتَيْ عَذْبٍ فُراتِ
أودعَتْهُ الرّيحُ ما استوْ دَعها زَهْرُ النّباتِ
فانْثَنوا عَنْهُ بأيْدٍ خَصِراتٍ عَطِراتِ

وقال يصف الجسر ويشبهه بالطّراز الذي يلوحُ في الرداء وبالخيل الدهماء [2] :

كأنّما الجِسْرُ قُويقَ الماءِ وسُفْنُهُ جانحَةُ الأفْياءِ
شِبْهُ الطّرازِ لاحَ في الرّداءِ كأنّهُ في خِلَعِ الظَلماءِ
دُهْمٌ من الخيْلِ على رِداءِ

ولقد وصف الصنوبري البركة وتأثّر بوصف البحتري لبركة المتوكل إلاّ أن وصْفَه لها لا يقل روعة وجمالاً عنه :

سَقَى حَلَباً سافِكٌ دمعَهُ بطيءُ الرُّقوءِ إذا ما سفَكْ
ميادينُهُ بُسُطَهُنَّ الرّياضُ وساحاتُهُ بينَهُنَّ البِرَكْ

---

(١) المصدر نفسه (٦٥) .
(٢) ديوان السري (١٤) .

ترى الريحَ تنسُجُ من مائِهِ دُروعاً مضاعَفَةً أو شبَكْ
كأنَّ الزّجاجَ عليها أُذيبَ وماءَ اللّجينِ بها قد سُبِكْ
هي الجوّ من رقّةٍ غيرَ أنّ مكانَ الطّيورِ يطيرُ السّمكْ
وقد نُظِم الزَّهْرُ نظْمَ النجومِ فمفترقُ النّظْمِ أو مشْتبكْ
كما دَرّجَ الماءَ مَرُّ الصَّبا ودَبّجَ وجهَ السماء الحبُكْ

ونلاحظ أن الشاعر جعل الريح تنسجُ من ماء هذه البحيرة درْعاً وشبّه ماءها باللّجين وزهرها بالنجوم الساطعة في السماء .

وهكذا يمكن القول بأن شعراء الندوة السيفية قد استحدثوا فنّاً جديداً في الوصف وتناولوا الصور المائيّة التي حفلَتْ بها بيئتهم فوصفوا الأنهار والجسور والبرَك والغُدران والدواليب وبرعوا في الوصف وأحسنوا وأجادوا .

الثلجيات :

لم يعرف أدبُنا القديم الثّلجيات لأن البيئة العربية لم تألف الثلج وحين اتسعت هذه البيئة وشملت مواطن تألفُ سقوطه كبلاد الشام وشماليّ العراق وفارس بقي الثلج بعيداً عن متناول الشعراء على الرغم من أنهم تأثروا بالبيئة الجديدة في كثير من أغراضهم الشعرية ومعانيهم الأدبية وصورهم الفكرية .

ويُعَدّ الصنوبري أول من تغنّى بالثلج وبدائعه في الأدب العربي فقد كانت حلب تشهد في كثير من فصول الشتاء أياماً للثلج بهجة . ولم تكن ثلجياتُ الصنوبري تقليداً لأحد بل كانت من وحي البيئة التي تأثر بها تأثراً كبيراً . ومن شعره في وصف الثلج قوله[1] :

ألمْ ترَ كيفَ قد لبستْ رُباها منَ الثّلجِ المضاعف أي لُبسِ

---

(١) ديوان الصنوبري (١٧٩) .

ثيابٌ لا تزالُ تذُوبُ لِيناً إذا الأيدي عرَضْنَ لها بلمسِ
كأنَّ الغَيْمَ مِمّـــا بُثَّ منه على أرجائِها أندَافُ برْسِ

وهو يفرح بالثلج الذي توّج الرّبا ثياباً ليّنةً الملمس وجعل قطع الجليد المتناثرة في الفضاء قُطناً مندوفاً .

وقد تغنّى الصنوبري في الثلج أيضاً فقال [1] :

ذَهّبْ كئوسَكَ يا غُلا مُ فإنَّ ذا يومٌ مفَضَّضْ
والجوّ يُجْلى في البَيا ض وفي حلي الدّرّ يُعرَضْ
أظَنَنْتَ ذا ثَلْجاً وذَا وَرْداً من الأغصان يُنفضْ
وَرْدُ الرَّبيعِ مُلَـــوَّنٌ والوَرْدُ في كانون أبيضْ

ولقد تأثر كثير من الشعراء بوصف الصنوبري للثلج فنسجوا على منواله ومن هؤلاء كشاجم الذي كان حظّه من الثلجيات أعظم ، وفتنه بها أبهَرَ من كل فتنةٍ ، إذ يقول :

ثَلْجٌ وشمس وصوب غادية والأرض من كل جانب غُرّهْ
بـــاتَتْ وقيعـــانها زَبَرجدَةٌ فأصبحَتْ قدْ تحوَّلَتْ دُرَّهْ
كـــأنّهـــا والثّلْجُ يضحكُها تغارُ مِمّن أحبّهُ غَيْرَهْ

هو في ثلجيته يجعل الأرض ضاحكة فرحة بثوبها الذي كساها به الثلج ، أما القيعان فلقد أصبحت درة ساحرة الجمال وخلعت ثوبها الأخضر وارتدت بدلاً منه ثوباً أبيض .

---

(١) ديوان الصنوبري (١٧٩) .

وعُني السري الرفاء بالثلج ووصفه وتغنّى به على طريقة الصنوبري وكشاجم فقال [1] :

تلألأت الرّبـا لمّا علاهـا كأنّ عـلى الرّبا أثوابَ آلِ
كأنّ ذُرا الغُصون لبسنَ منه حلى الكافورِ رَبّاتُ الحجالِ
تجولُ العينُ فيهِ وهوَ فيها كشهْبِ الخيل رُحن بلا جِلالِ

وقد جعل الرّبا مكسوّةً بثوب أبيض وشبّه الثلج بالكافور ومن تشبيهاته البديعة في الثلج قوله :

أما ترى الثّلجَ قد خاطَتْ أناملُه ثوباً يزُرّ على الدّنْيا بأزْرارِ
نارٌ ولكنّها لَيسَتْ بمُبْدِيَةٍ نوراً وماءٌ ولكن ليس بالجاري

ونلاحظ أن شعراء الندوة السيفية قد برعوا في هذا الفن الجديد من الشعر وتأثر الشعراء بطريقتهم ونسجوا في بغداد على منوالهم . وسلك المهلّبي والصاحبُ بنَ عبّاد طريق الصنوبري في وصف الثلج وهو يعد إمام هذا المذهب [2] .

الفصليات :

تأثر شعراء سيف الدولة في وصفهم لفصول السنة بجو حلب الخلاّب الجميل الذي تتمثل فيه الفصول تمثلاً حقيقياً ولا يطغى فيه فصل على فصل .

ولقد سبق للشعراء أن تغنوا بالربيع وأنشدوا أعذب الشعر وأرقه في خمائله وخضرته وطيوره ومائه وثماره . وقصائد أبي تمام والبحتري وابن الرومي في هذا الشأن شائعة ذائعة وجميلة ساحرة .

---

(١) ديوان الرسي الرفاء (٢٣٠) .
(٢) اليتيمة (٢ / ١٠٩) .

وقد أكثر شعراء الندوة السيفية من وصف الفصول وأبدعوا في هذا اللون أيّما إبداع . ومعانيه عندهم كثيرة تتصل بالسماء كما تتصل بالأرض ويتأثر بها الحس كما تتأثر النفس .

وكان الصنوبري – وهو أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي – وُلوعاً بالسماء والضياء والهواء وهو يقول في إحدى أغاني الربيع [1] :

إن كانَ في الصيفِ ريحانٌ وفاكهةٌ والأرضُ مستوقِدٌ والجوّ تنّورُ
وإنْ يكن في الخريفِ النخل مختَرقاً فالأرض عُريانَةٌ والجوّ مقْرُورُ
وإن يكنْ في الشّتاء الغَيثُ متصلاً فالأرض محصورَةٌ والجوّ مأسورُ
ما الدَّهْرُ إلاّ الرّبيعُ المُستَنيرُ إذا جاء الرّبيعُ أتاكَ النَّوْرُ والنُّورُ

ونلحظ أن الشاعر يعقد موازنة لطيفة بديعة بين فصول السنة ويفضل الربيع عليها جميعاً .

وينساب الشاعر فيصف جمال الربيع برياضه الغُنّ وأزهاره الشذيّة ومياهه الرّقراقة فيقول :

الأرضُ ياقُوتَةٌ والجوّ لـؤلؤةٌ والنبتُ فيروزَجٌ والماءُ بلّورُ
تباركَ اللهُ ما أحلى الربيع : فلا تُغْرَر فقايسُهُ بالصّيفِ مغْرُورُ
مَنْ شمَّ طِيبَ جَنِيّاتِ الرَّبيع يقُلْ لا المسك مسكٌ ولا الكافورُ كافورُ

وفي قصيدة أخرى يصف الصنوبري الشتاء ويتغنى به ويقول [2] :

طَيّبَ داري ليَ الشتاءُ وهلْ شيء كشيء يُطيّبُ الدّورا

---

(١) الوافي في الوفيات (١ / ٦١) .
(٢) ديوان الصنوبري (٢٧) .

بالصحن والسطح والمجالس والرّ واقِ ما إنْ أزال مسرورا
وبالحياض التي تَتيهُ عـلى مُحبَّراتِ الرّياضِ تحبيرا
للهِ يومٌ هناكَ قد ضربَ الـ ـغيمُ لنا دونَ شمسه سورا
والسّحْبُ مشغولَةٌ ببِركَتِنا تصُوغُ منْ مائِها قواريرا

فهو يصف مياه الشتاء المتدفقة وغيومه التي حجبت الشمس وجعلت دونها سوراً وسحبه التي شُغِلت بمناجاة البرك وصاغت من مائها قواريرا .

ويفتن السري الرفاء بالربيع ويحتفل به ويبتهج لقدومه ويصوّر جمال السحب في أفق السماء وبهاء الرياض التي تفتحت أنوارها وجرت أنهارها [1] :

هَفا طَرَباً في أوانِ الطّرَبْ فأنحَبَ أقداحَهُ كالنّخبْ
وغَنّى ارتياجاً إلى عارِضٍ يغَنّي وعَبْرَتُه تنسَكِبْ
غُيومٌ تمَسّكُ أفْقَ السّماءِ وبرقٌ يكَتّبُهُ بالذّهَبْ
وخَضْراءُ ينثُرُ فيها النّدى فريدُ ندى ما له من ثَقَبْ
فأنْوارُها مثلُ نظْمِ الحُليّ وأنهارُها مثلُ بِيضِ القضُبْ
وأحسَنُ شيءٍ ربيعُ الحَياةِ أُضيفَ إليهِ ربيعُ الأدَبْ

فالشاعر يعبّر عن ابتهاجه في ذلك اليوم البارد الذي صَبا فيه إلى الصّبا فصوّر هواءه البارد وغيمه الصافي وسماءه السخية التي تذْرفُ الدموع وبرقه الذي يحاكي النار .

ونلاحظ أن شعراء الندوة السيفية اهتموا بالفصول جميعها فوصفوها وصفاً بارعاً وعقدوا بينها موازنات طريفة . وأتوا بالصور الجديدة المبتكرة والمعاني اللطيفة للدقيقة .

---

(١) اليتيمة طبعة ١٩٤٧ (٢ / ١٦٩) .

وصف مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية

بلغ المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري قمة التقدم الحضاري ، وتعددت مظاهر الترف وألوان النعيم .

وشاركت إمارة سيف الدولة في مظاهر هذا التقدم الحضاري حيث انفعل الشعراء بهذه الحياة وتأثروا بها ويمكننا أن نقول إن شعراء الندوة السيفية لم يدَعوا مظهراً من مظاهر الحضارة إلاّ وصفوه في دقة وتفصيل ، فوصفوا أدوات الكتابة والأدوات العلمية كما وصفوا آلات الموسيقى وقوارير العطر ومواقد الفحم في الشتاء والحمّامات وغيرها من سُبُل الحضارة . وحلّقوا في الوصف وبلغوا ذروة الفن وطرقوا كل الموضوعات في عمق وشمول ورسموا الحياة في كثير من الإبداع والفن.وسنعرض في هذا الفصل الحديث عن الشعر وتصويره لهذه الألوان من الحياة الحضارية .

أدوات الكتابة :

اهتم سيف الدولة بالكتابة وأولاها الكثير من عنايته ورعايته وبرز في رحابه شعراء كتاب ومن هؤلاء كشاجم . ولا غرو أن يهتم بالكتابة ويُعنى بها ويصف أدواتها في الكثير من شعره . ولقد قال في وصف القَلَم :

نحيفُ العُرا ، يعدو على أُم رأسِهِ ويخفى ، فيقوى عدوه حين يقطَعُ

يمجّ ظلاماً في نهارِ لسانهِ ويفهمُ عمّنْ قال ما ليس يسمعُ
فصيحٌ ، متى ينطِقْ تجدْ كلَّ لفظةٍ أُصولَ البراعاتِ التي تتفرَّعُ

ولقد وصف كشاجم أيضاً محبرةً وأقلاماً ومقلمةً وسكيناً واستعاض بأدواته هذه ومجالس الأدب عوضاً عن اللهو وآلات الطرب فهو يقول :

حَسْبي من اللّهْوِ وآلاتِ الطّرَبْ ومِنْ ثَراءٍ وعتادٍ ونَشَبْ
مجالسٌ مَصونَةٌ عَنِ الرّيَبْ معمورةٌ من كلّ علمٍ يُطَّلَبْ
تكادُ من حَرّ الحديثَ تَلْتَهِبْ شعراً وأخباراً ونحواً يُقْتَضَبْ
ولغةً تجمَعُ ألْفاظَ العَرَبْ وفِقَراً كالوعدِ في قلبِ المحبْ

ثم ينتقل الشاعر بعد هذه المقدمة اللطيفة إلىوصف المحبرة والأقلام فيقول :

مَثْقُوبَةٌ آذانُها وفي الثّقَبْ مِنْ مثلِ شَوْقِ الخردِ البيضِالعرَبْ
تضمن قطراً للكتاب عَنْ كَثَبْ أسوَد يجْري بمَعانٍ كالشّهبْ
لا تنضُبُ الحكمةُ إلاّ إن نضُبْ نيطَتْ إلى يُسرى يدَيَّ بسببْ
كالقُرْطِ في الجيدِ تدلّى واضطرَبْ يصحبُها والأخَواتُ تُصْطَحَبْ

وهو يصف المحبرة وصفاً دقيقاً فهي مثقوبة وتحتوي على حبر أسود يجري بالمعاني اللطيفة والأفكار العميقة والقَلَمُ كالقُرط في الجِيد يصحبها في كل وقت وآن والأخوات تصطحب .

ويمضي الشاعر على رسله فيصف المقلمة والسّكّين فيشبه المقلمة بالكنانة والأوراق لا تضحك إلاّ إذا بكت أقلام تلك الكنانة ثم يصف جمال السكين وقَوامَها الأهيَف ويصوّرُ تقويمها للأقلام وبريها إياها فيقول :

كِنانَةٌ تُودَعُ نَبْلاً مِنْ قصَبْ لمْ تعلُها ريشٌ ولمْ تُكْسَ عَقَبْ

لا تضحكُ الأوراقُ حتّى تنتحبْ ترمي بها يمنايَ أغراضَ الكُتُبْ
رَمْياً متى أقصدْ به السّمتَ أُصِبْ ومُنيَةٌ كالعضبِ مائلٌ قَضَبْ
غضْبي على الأقلام مَن غيرِ سَبَبْ تسْطو بها كل حينٍ وتَثِبْ
وإنّما ترضيك في ذاكَ الغَضَبْ والظّرْفُ في الآلاتِ شيءٌ يُستحبْ

وكشاجم الذي عُرف بلطائفه واشتهر بها رثى سكّيناً فقدَها وبكى عليها وتفجع وكأنه يبكي على عزيز فقده فقال :

يا قاتَلَ اللهُ كُتّابَ الدّواوينِ ما يستحلّون من سَرْقِ السكاكينِ
لقد دهاني لطيفٌ منهمُ خَتِلٌ في ذاتِ حدّ كحَدّ السّيف مسنونِ
فابتَزّنيها ولمْ أشعُرْ به عَبَثاً ولستُ لو ساعني ظَنٌّ بمغْبونِ
وأقفرَتْ بعْدَ عُمرانٍ بموقِعِها منها دواةُ فتىً بالكُتبِ مفتونِ
يبكي على مُدية أودى الزّمانُ بها كانت على جائرِ الأقلامِ تُعديني
كانتْ تقوّمُ أقلامي وتُتْحِفُها بَرْياً وتَسخَطُها قَطّاً فترضيني

ونحن نلاحظ أنه يتهم أحد كتّاب الدواوين بسرقة سكّينته ويصفها بأنها حادة كحد السيف وأنها أثيرة حبيبة لنفسه ثم يتفجع عليها ويتحسر على فقدها .

ووصف السري الرفاء القلَم وصفاً بارعاً فشبهه بالأخرس الفصيح والعاشق المخفي هواهُ الذي تفضحه عبراته وهو عُريان يكسو الناس وأسيرٌ طالما أطلق أقواماً من الأسر . فقال [1] :

أخرسُ يُنْبيكَ بإطْراقِــهِ عن كلّ ما شئتَ من الأمْرِ
يُذري على قِرطاسه دمعَةً تُبْدي لنا السرّ وما تَدري

(١) ديوان السري الرفاء (١٤١) .

كعاشقٍ أخفى هواهُ وقَدْ نمّتْ عليه عبرَةٌ تجْري
تُبصرُه في كلّ أحْوالِـه عُريانَ يكسو الناسَ أويُعري
يرى أسيراً في دَواةٍ وقَدْ أطلَقَ أقواماً مِنَ الأسرِ

ومن وصفه البديع للقلم قوله :

لهُ قَلَمٌ تَجْري النّجومُ بجَرْيِه يُطيعُ لهُ حَتْمُ القضاءِ ويسمعُ
يُديرُ سُعوداً أو نحُوساً وإنّـهُ من الفَلَكِ الدوّارِ في الجوّ أسرَعُ
إذا ما امتطى منهُ ثلاثَ أناملٍ بدا ساجِداً من تحتِها وهيَ رُكّعُ

وهو يصف القلم بأنه أسرع من النجم والفلك في جريانه وبأنه يدير السعد والنحس بكونه والأصابع تمسك به ساجداً وهي رُكّعُ .

ووصف أبو بكر الخالدي القَلَم وبدا تأثره واضحاً بالسري الرفاء في وصفه فهو يتشابه معه في الأسلوب والمعنى [1] إذ يقول :

لهُ قَلَمٌ كقَضاءِ الإلـ ـهِ فبالسعد طوراً وبالنحس ماضِ
وما فارَقَ الأسْدَ في حالَتَيْهِ يَبيساً وذا وَرَقـاتٍ غضاضِ

وهكذا نلحظُ أن هذا اللون من الشعر يعدّ فنّاً انتشرت ألوانه وتعددت صوره ونمت رسومه في رحاب سيف الدولة وعلى يد شاعره كشاجم وإن كان أساسه وأصوله موجودة في شعر أبي تمام غير أن كشاجم قد أكثر من هذا اللون الشعري وجدد في مبانيه ومعانيه وابتكر في صوره ورسومه حتى يمكن القول أنه أصبح أشهر زعماء هذه المدرسة وأبرز روادها في الأدب

---

(١) ديوان الخالديين (٦٧) .

العربي وعلى طريقه سار السري الرفاء وبه تأثر كما تأثر غيره من الشعراء به فيما بعد .

تنوعت أدوات الحضارة في المجتمع الحمداني وتعددت سبلها وألوانها وكان من الطبيعي أن يتأثر الشعراء بها وأن يعرضوا لها بالوصف في أشعارهم وأن يتحدثوا عنها في قصائدهم .

ولقد وصف كشاجم المذبّة التي هي من أدوات الصيف فقال [1] :

مِـــذَبّـــةٌ تُهدى إلى سيّدٍ ما زال من كلّ وليّ يَذُبْ
طريفَـــةٌ لم يخلُ من مثلِها مجلسُ ذي ظرفٍ ولا ذي أدبْ
لطيفَةٌ تجمَعُهـــا حِلْيَةٌ مذَهّبَةٌ في قائمٍ منتخبْ
كأنّها في ظَهْرِ مَجْدُولَةٍ ذؤابَةٌ أنبوبُها من ذَهَبْ
قليلةُ المِقْـــدارِ لكنّهـــا أكثرُ منْها أنّها من مُحِبْ

وهو يصف المذبة بأنها زينة كل مجلس ظرف وأدب وبأن قائمها من الذهب . وهي قليلة المقدار ولكن أهميتها العظيمة كونها هديةً من محب .

ووصف أبو بكر الخالدي المِروحة التي أهداها إلى أحد الكتّاب فقال [2]،

بَعَثْتُ إليْكَ أطالَ الإلـ ـهُ عُمرك ما طالَ عمرُ الحقَبْ
بمِرْوَحَةٍ راحَـــةٍ للقُلوبِ لهـــا نسْبَتانِ إذا تنْتَسِبْ
ففي سعَفِ النّخلِ نَخلُ النبيطِ وفي الخيزرانِ غِياضُ العرَبْ
عليها الحِـــدادُ كمهجورَةٍ رمَتْها عَشِيقَتُها بالغَضَبْ

---

(١) ديوان كشاجم (٩) .
(٢) ديوان الخالديين (٢٧) .

وهو يصف المِرْوحَة بأنها راحة للقلوب وتنتسب إلى سعف النّخل والخيزران وأنها مصبوغة باللون الأسود ثم يستطرد الشاعر فيذكر منافعها الجمّة فهي تردّ حرَّ التشارين وتُجعل سِتراً وقت الحديث كما أن صوتها موسيقى وتصلح كذلك لضرب الدَّلال ويومأ بها خلال الكلام فيقول :

منافِعُها أبداً جَمّةً ... لمالِكِها غير قَوْلٍ كَذِبْ
تَرُدّ التشارينَ في حِمّةٍ ... من القَيظِ نيرانُها تَلتَهِبْ
وتُجْعَلُ سِتراً إذا ما أرادَ ... تَ سيراً إلى صاحب في سبَبْ
وإن شئت كانت قضيبَ الأقاحِ ... فأدَّت إليكَ فنونَ الطَّرَبْ
وتصْلحُ للضربِ ضربَ الدلالِ ... دلالَ الحبيبِ إذا ما عَتَبْ
وتومي بها في عروضِ الكلام ... إذا ما أجبْتَ لنثرِ الخطَبْ

واهتم الشعراء بأدوات الترف والحضارة فوصفوا الشمعة وأكثروا من الحديث عنها في شعرهم ومن ذلك قول الوأواء في وصفها [1] :

ومخطوفَةِ الخَصْرِ لمّا بدَتْ ... لدى الليلِ عاينتَ صُبحاً يُضي
تعاقِبُ من نفْسِها نَفْسَها ... فتُقضى الأمورُ كما تَنْقضي
وتمرَضُ إنْ تركوا رأسَها ... وإنْ قصدوا الرأس لم تمرَضِ

وهو يصفها بأنها رقيقة الخصر هيفاء وهي عدوّة الظلام وتمرض إذا لم يقطعوا رأسها ووصفها السري الرفاء [2] بقوله :

وشمعةٍ في يد الظّلام حكتْ ... عُنقَ ظَليمٍ بغيرِ مِنْقارِ
تبكي إذا نار شوقُها اضطربتْ ... بدَمْعِ تبرٍ من الأسى جاري

---

(١) ديوان الواواء (١٣٧) .
(٢) ديوان السري (٣٨٤) .

كأنّها نَخْلَةٌ بــلا سَعَفٍ تحملُ أُتْرُجّةً منَ النّارِ

وواضح أنه يشبّهها بعنق ذكر النعام طولاً ويشبّه قطراتها بدمعٍ من التبر كما يشبهها بنخلة بلا سعف تحمل أُترجّةً من نار .

وكما وصف الشعراء الشمعةورسموها بشتّى الصور البديعة نراهم كذلك وصفوا المجمرة وأكثروا من الحديث عنها فلقد قال الصنوبري [1] :

وبِركَةِ نــارٍ تستَقِلُّ بمِقْبَضٍ لها من نواحيها قوائمُ أربَعُ
إذا الأعينُ اشتاقت إليها بدتْ لهــا وفي وسطِها عينٌ من الطّيب تنبعُ

وهو يصف المجمرة ويشبهها ببركةٍ متقدة من النار ويشبّه وسطها بالعين التي تنبع طيباً .

ويشبهها في قصيدة ثانية بفوّارة في بركة جميلة ماؤها الدّخان بدل الماء وحصباؤها النيران [2] فيقول :

مجمرَةٌ طافَ بها الغِلْمانُ أبْدَعَ في صنعتها الزّمانُ
كأنّهــا فيما حكَى العِيانُ فوّارَةٌ ومــاؤها دُخانُ
في بِركَةٍ حصباؤها نــيرانُ إذا تبدّتْ حَزِنَ الرّيحــانُ

وقد وصف السري الرفاء المجمرة وصفاً جميلاً رائعاً فشبه دُخانها بالعجاج وجمرها بالياقوت كما أنها لا تكتم سرّاً تستودعه لأنّ أنفاسها في كل مجلس وذلك في قوله [2] :

ومَبنِيّةٍ من خيزرانٍ مفَضَّضٍ يقدّمُها خشفٌ من الإنسِ أروَعُ

---

(١) ديوان الصنوبري (٣٢٢) .
(٢) المصدر نفسه (٥٠٣) .

عجاجَتُها دكناءُ في كلّ مجلسٍ ... وياقوتُها الجمْرُ الذي يتضوع
إذا استودعتْ سرّاً أذاعتُ بسرّها ... تشتّتُ أنفاساً بها العيشُ يجمعُ

ووصفوا الفحم وكانون النّار بصور ملونة زاهية وتشبيهات مترفة ومن ذلك قول الببغاء في وصف كانون بمجلس [1] :

ومجلسٍ حلّ مَنْ يحلّ به ... منَ المعالي أرفعَ الدّرجِ
أمسى ندام الكانون فيه لنا ... أكثرُ أنس النّفوسِ والمُهَجِ
يُبْدي لنا ألسُناً كالسنة الحَيَـ ... ـاتِ من ثابتٍ ومختلِجِ
لمّا بدا الفحم فيهِ أسودَ كاللّـ ... ـيْلِ وبثّ الشّرارَ كالسرجِ
ودَبّ صِبْغُ اللّهيبِ فيهِ بتضْـ ... ـريجِ خدودٍ والشقائقِ الضُّرُجِ
ظننتَ شمس الضّحى به انكشفتْ ... للخلقِ في قُبّةٍ من السّبَجِ

وهو يشبه ألسنة اللهب المتموجة بألسنة الحيّات في اهترازها وثباتها والفحم يشبهه بالليل الأسود . والكانون المصطبغ بلون اللهيب يشبهه بخدود متضرجة بلون الشقائق الحُمْر .

ويتحدث السري الرفاء عن كانون النار ويذكر أرجله الأربع التي ترفض السير وتنتهي بقطع من الحديد كالحوافر وهي تحمل فحماً بين مورد زاهٍ بلهب النار وبين أسود كالظلام لم تمسّه النار بعد . ويشير إلى أن للكانون أيام وصاله في البرد وهجرانه في الصيف [2] :

وأزهرَ وضّاح يَروقُ عيونَنا ... إذا ما رميناه بلحظِ النّواظرِ
له أربع تأبى السرى غير أنها ... تصافح وجهَ الأرض مثل الحوافرِ

---

(١) زهر الآداب (١ / ٢٢١) .
(٢) ديوان السري الرفاء (١٤٣) .

يقُل جسوماً بعضُها من مُوَرَّدٍ وسائرِها في مثل صبغِ الدياجرِ
نواصلُهُ أيام للقرِّ سطوَةً ونهجرهُ أيّام لفحِ الهَواجِرِ

ووصف أبو بكر الخالدي كانون النار وصفاً طريفاً حياً ناطقاً فقال [1] :

ومُقْعَدٍ لا حَراكَ ينهضُهُ وهو على أربع قد انتصبا
مصْفَرُّ مُحْرِقٌ تَنَفّسُهُ تخالهُ العينُ عاشِقاً وصِبا
إذا نَظَمْنا في جِيده سَبَجاً صيّرَهُ بعد ساعة ذهَبا [2]

وهو يتحدث عن الكانون المقعد الذي لا يتحرك ويقوم على قوائم أربع ويشبّه لون لهب ناره الأصفر بلون العاشق المحب وهو يحول الفحم الأسود الذي يحاكي السّبج إلى ذهب صاف .

ومن الأدوات التي كانت تُستخدم المرآة ، ولقد وصفها كشاجم وصفاً رائعاً حقاً فقال :

أُخت شمس الضحاء في الحسن والأشـ ـراقِ غيرِ الإعشاءِ للأجْفانِ
ذاتُ طَوْقٍ مُشرَّفٍ من لُجَيْنٍ أُجْرِيَت فيهِ صُفْرَةُ العقيانِ
فهو كالهالَةُ المُحيطَةُ بالبَدْ رِ لستٍّ مَضينَ بعْدَ ثمان

وهو يقرنها بالشمس في الحسن والإشراق كما يصف طوقها الذي صيغ من لجين ومُزج بصفرة العقيان ويشبهه وهو يحيط بها بالهالة التي تحيط بالبدر في وقت انتصافه .

وينساب كشاجم إلى وصف الصور الحميلة التي تزين ظهرها ويشبّه المرآة بالشمس فيقول :

---

(١) ديوان الخالديين (١٨) .
(٢) السبج : الخرز الاسود والواحدة سبجة .

وعلى ظَهرِها فوارسُ تَلْهو ببزاةٍ تَعْدو على غِزْلانِ
عدَلْتَ عكسها الشّعاع مَبْدا هُ إليها "ورجعَةٌ" سيّانِ
وهيَ شمسٌ وإنْ مثالكَ يوماً لاحَ فيها فإنها شمْسانِ

وكما وصف شعراء الندوة السيفية أدوات الصيف والشتاء وصفوا أدوات الموسيقى والغناء والطرب التي كانت تُستخدم في عصرهم ، ولقد برع في هذا اللون من الشعر كشاجم حتى ليعد الشاعر الأول فيه — ولقد افتن في وصف العود والقينة والغناء على ألوان كثيرة وفي قصائد متعددة ومن ذلك قوله في وصفه العود [1] :

مخطَفُ الخَصْرِ أجْوَفٌ جيدَهُ ضَعْفُ سائِرِهْ
لفْظَهُ لَفْظُ عاشِقٍ يَشْتَكي هَجْرَ هاجِرِهْ
ذو لسانَيْنِ فَوْقَهُ عَدَّلا مِنْ مَقادِرِهْ
فحَكَى عَنْ ضَميرِهِ ما جَرَى في خَواطِرِهْ

وهو يصف العود بأن خصره ضامر أجوف وجيده ضعف سائره ولفظه عذبٌ كلفظ عاشق يشتكي ألم الهجر ويصف أوتاره بأنها ألسنة تنطق بما يجري من خواطر في ضميره . ولقد وصف المعزفة فقال [2] :

مُعْلِنَةٌ الأوتارِ صخابةٌ لها حَنينٌ كحنينِ الغريبْ
زادَتْ على المزهر طيباً وقَدْ تاهَتْ على النّاي بخلقٍ عجيبْ
مكسوةٌ أحشاؤها حُلّةً من جلدِ أحشاءِ غزالٍ ربيبْ

---

(١) ديوان كشاجم (٧٧) .
(٢) المصدر نفسه (٩) .

كأنما تسْعَـــةُ أوتارِهـــا نُصبتْ شراكات لصيدِ القلوبْ

ونلاحظ أن كشاجم يعقد موازنة بين المعزفة والزهر والناي ويفضلها عليهما وأحشاؤها مكسوة بحلة من جلد أحشاء غزال ربيب وأوتارها كأنها شرك نصب ولكن لصيد القلوب .

وكما وصف شعراء الندوة السيفية أدوات الترف والحضارة وصفو مرافق الحياة العامة ولم يتركوا ظاهرة من ظواهر المجتمع إلاّ وأمعنوا الوصف فيها ، ومثال ذلك وصف السري الرفاء للحمّام [1] :

لمّا رأينا خمار الكأس يعلقُنا عُجنا إلى بيت عاجٍ أرضه سبـــجُ
بَبَيْتٌ لهُ داخِلٌ حَلَّ النّعيمُ به وخارجٌ فيهِ للقلْبِ الشجي فرَجُ
ذو قبّةٍ كسماءٍ والبُدورُ بهـا جاماتها في ذراهُ الجَوُّ ينفَرجُ
حرٌّ وبَرْدٌ والهـواءُ بـــــه معدَّلٌ قِسمَةً ما شانها عِوَجُ

ويصف السري الحمّام بأنه بيت من عاج وأرضه سوداء كالسبج وأن الداخل إليه يحل النعيم في قلبه والخارج منه تزول همومه وأحزانه وقبته كالسماء وبدورها الجامات ، والهواء فيه معتدل دون عوج إلى حر أو بَرد .

وكتب إلى سعيد الخالدي يدعوه لزيارة الحمّام وذلك قبل نشوب الخلاف بينه وبين الخالديين والذي أشرنا إليه سابقاً [2] .

أسعِيدُ هَلْ لكَ في زيارة منزلٍ تُثنى عليـــهِ جوانِـحُ الزّوّارِ
رَحْبٌ تُلاقي الجدْرَ منه ينـــابعاً وترى السّماءَ علَيْهِ كالأقمارِ

---

(١) ديوان السري (٦٩) .
(٢) ديوان السري (١٤٣) .

يَنْضُو الحَيِيُّ الوجه ثوبَ حَيائِهِ فيه فيخطُرُ كالحسام العـاري
متقَلّباً في نِعْمَـةٍ فَضْفـاضَةٍ جُعلَتْ له عِوَضاً مِنَ الأطْمارَ

وهو يصف الحمّام بأنه رحب ، ينبع الماء من جدرانه وقد سُقّف بقطع من الزّجاج تراها كالأقمار في السماء ، وروادها يخلع الحييّ منهم ثوب حيائه حين يدخل إليه ويخطر كالحُسام العاري ويتقلّب في النعمة الفضفاضة التي جُعِلت له بدل الأطمار .

ويستطرد السريّ فيصف الصور المرسومة على جدرانه وصفاً جميلاً ساحراً فهي صور معركة بين جيشين متقاتلين ، وخيول الفرسان تخطرُ بين القنا والسيوف الممشوقة بغير بوارق والجياد تجري بغير غُبار وهذه المعركة ليس فيها عزيز منتصر ولا ذليل منهزم وذلك لأنها رسمٌ وزينة على الجدران :

وتَرى على جُدْرانِهِ بُهُمَ الوَغى يخطِرْنَ ما بينَ القَنـا الخطّارِ
سُلّتْ سيوفُهُمُ بغيرِ بَـوارِقٍ وجرَتْ جِيادُهُمُ بغيرِ غُبارِ
زَحْفانِ لم يحْظَ العَزيزُ برِتْبَةٍ منهم ولا آبَ الذليـلُ بعارِ

وكما وصف السري الحمّام وصف أيضاً المزمّلة وهي : صخرة كبيرة مثقوبة في وسطها من الأعلى والأسفل ويوضع فيها الماء لتصفيتهوتبريده وقت الصيف . فقال [1] :

بَديعَةٌ جِسْمُها زَبَرْجَدَةٌ خضراء يخفي جمالها الحجُبُ
مجروحَةُ الخَصْرِ غيرُ داميَةٍ كما تكونُ الجروحُ والنُّدَبُ
كأنها من جَفـاءِ لِبْستِها مقرورةً والهَجيرُ يلْتَهِبُ

---

(١) ديوان السري (٦٠) .

كأنّما المـاءُ حينَ تَبْعَثُهُ ذوبُ لجينٍ ميزابُهُ ذَهَبُ

ولعلك تتفق معنا على أن هذا التصوير رائع حقاً فهو يشبّه المزمّلة بالزبرجدة الخضراء وثقبها غير دامٍ كالجروح والنُّدب وهي مقرورة والهجير يلتهب والماء حين ينبعث منها كأنه فضة وميزابه الذهب .

وهكذا نلاحظ أن شعراء الندوة السيفية قد برعوا في وصف مظاهر الحياة الاجتماعية في عصرهم وأنهم لم يتركوا شيئاً إلا تحدثوا عنه في دقة وبراعة. وأن مظاهر الحضارة قد انعكست بأجلى صورها وأدق جزئياتها في شعرهم .

وهكذا يمكن القول إن هذا الضرب من الشعر يُعد فنّاً مستحدثاً جادت به قرائح شعراء الأمير الحمداني . ولقد اتسعت دائرته بحيث شمل جميع ما يتصل بحياة مجتمعهم فوصفوا أدوات الكتابة والشموع والفحم والنار والكانون والمجمرة والمزمّلة والمعزفة وأدوات الغناء والطرب ، كما وصفوا الحمّام إلى غير ذلك مما كان له صلة بحياة المجتمع آنذاك .